ديوان العرب تقدم لكم:

محبوب البحر

رواية

أحمد سامي خاطر

لم يعد (الزين) يتحدثُ عن البحر .. لأنه ماتْ !!

-1-

كان قد صنع تفاصيلَ قاربه الذي أسماه "الجسَّاس"، بكل ما يمكن أن يكشف عما في نفسه من شغف بالبحر وارتياع منه ، فزَانَهُ بأغطية السلاحف العملاقة ، وسحالي (الأجوانا) الضخمة اعتقاداً بجلب الرزق ووفرة المورد .. واختص دون غيره باصطياد الزنابير البحرية التي تهاجم بشراسة ، كما دأب على تحنيط الزنابق ، التي تدفعها إلي الساحل فَوْرَةُ (المدِّ الأحمر) الرهيبة ، كتميمة لقوامة الإنسان على البحر ، ورمزاً للعزم على خوض غماره في أشرس حالاته ..

وأورثني المالح .. أضرب فيه بمجدافيَ الجساس ، فأري بعيونه ذلك الملكوت الرحب المسوس بالرهبة والغموض والأسرار ، حتي صرت أنا البحر .. ابنه ومحبوبه .. خليفة أبي في صناعته وهباته .. عمري من عمر القارب العملاق .. معه ولدتُ، وتكحلتْ عيني بالنظر إليه .. نظرة إكبار ومهابة ، كنظرتي الصغيرة إلي هذا الكون ، الذي يفتقر في عيوننا إلي المدي المحدود .

*** * ***

-2-

وعلى شاكلة القارب (الجساس)، تفرغ الزين ما ينيف عن الأعوام الثلاثة المتصلة ، لإتمام تشييد أسطولٍ بحري من القوارب العملاقة ، ذات الأشرعة العنيدة . كان ذلك على أشهاد العشائر ، وفتيانها الذين كان لهم نصيب في المشاركة والعون ، واتساع الصدر ، وشدة البأس ، والمداومة الباسلة في احتمال طباع أبي . حقاً .. كان صامتاً صبوراً .. يتحرك كسلحفاة ، ويفكر بعمق البحر وسعته ، فلم يحرِ إجابة واحدة شافية ، لأسئلة كثيرة ، تزاحمت زهاء سنوات المداومة والصبر ، في إعداد هذه القوارب ؛ حول أسباب صناعتها ، ولمن تكون .. حتي باتت مثل سرٍّ غامض من أسرار وادي إكباش ، الذي أصبح كل شيء فيه محلاً للتكهنات والأقاويل .

اشرأبت أعناق أهل عشائر البدو من كل حدب وصوب ، فكانت رؤية القوارب على الساحل مثاراً لفزع ملاعين جبل الوادي برَّاً، ولوثة قراصنة المالح بحراً . وكان العم (فياض) الشقيق الأصغر والوحيد للزين ، على رأس جماعةٍ، جابوا الوديان بحثاً في الغابات وساحات الأشجار والنخيل ، وأبلوا بلاءاً حسناً في جمع وحشد أخشابها ، ولم يشفع له عند أخيه ما قدمه من دأب ودعم ، ليحظى بمعرفة أسباب صناعة هذه القوارب العملاقة ، التي احتشد الزين لها طيلة هذه السنوات ، وسخَّر لأجلها كل الجهود ، وبث في نفوس الفتيان من الطاقة

والحماس ، ليبذلوا جزيل العطاء نظير أجرٍ وافٍ، سال لذكره لعاب أهل البوادي ، وفتح مجالاً للتلسن والتقولات ، مما حدا بالبعض إلي عدم استبعاد فكرة أن يكون الزين قد عثر لحالة على كنز الصيادين القدماء داخل الفلوكة الغارقة ، ونجح – وهو من يكون "جساس البحر ورقيب أطواره " – في حل لغز أعماق منطقة (بطن المالح) وجزيرته المنكوبة ..

أصمَّ أبي أذنيه عن كل من حوله .. مضي في عزمه نحو إتمام تشييد هذا الأسطول الذي شبهه الناس بالأساطيل الحربية القديمة . كان يعلم أن مجرد تسريب خبر القوارب لأخيه ، سيكون كافٍ جداً لإذاعته وشيوعه على مرأي ومسمع عشائر الوادي عن بكرة أبيها ، ليس لشيء غير أن ذلك الحطَّاب حليق الرأس قوي البنية ، تتعطل كل ملكاته التحفُّظيَّة ، حين يصبح وجهاً لوجه أمام امرأته (زهيرة)، التي لا يملك إزاءها فن مهارة الاحتفاظ بحلقة جافاً لأكثر من دورة شمسية واحدة ، وما من شأنه أن يضاء في مساء اليوم الذي يليه وكر العجائز من نساء عشيرة (الكرمة)، ليجدن في جديد الأخبار بديلاً أكثر متعة وإثارة ، من الخوض فيما اعتدنه من أحاديث مكررة ومملة للعجوز (صفوانة)، عن وشم الفتيات ، وتقديس الأعراف ، ومداولة الأحاديث التي لا تنتهي عن ثأر أشراف (بني حميد) من عشيرتنا .

لم يكن ليعرف أحد ، على أرض وادي (إكباش) كله ، غيري أنا فقط ، بكر ابن الزين الجساس .. اختصني أبي دون غيري ، قال :
" يا بكر .. لأنك الوحيد الذي لم يسأل ، فأنت الوحيد الذي ينبغي أن يعرف " .
" لكني بعيد عن هذه الأمور ، ولم أزل صغيراً يا أبي " .
" لا .. بل أراك كبيراً، وسامقاً يا ولدي " .

أخبرني بأن هذه القوارب التي صنعها ، وتراصت على ساحل البحر كحقائق لا تقبل الريبة ، سوف توضع تحت تصريف قوة بحرية مكلفة ، من رجال الضفادع وخفر السواحل ، وبسريَّة تامة ، لمنازلة البحر - ولأول مرة - بتلك المنطقة المنكوبة التي تدعي بطن المالح .. وصفها - فيما بعد - قائدهم (البشير نعمان)، بأنها " حزام من هبَّات الريح العاصفة ، والأعاصير الحلزونية ، والمطر الغزير " .. وهناك شدُّوا أوتاد الخيَام ، وشَيَّدُوا ترسانة لهذا الأسطول الضخم ، ألحقوها بمختبرٍ ؛ لبحث ودراسة اختلاف تيارات العمق هناك .
* * *

-3-
تحرَّك البشير برفقة أحد أتباعه ، ويُدعي (ذو الفقار)، مقترباً من بئر الوادي .. تناهي إليهما فجأة صوتٌ مكلوم ، كأنه استغاثة مجهضة وبعيدة ، سرت بين ليلٍ هادئ مهيبٍ .. توقفا .. أدركا أن الصوت لامرأة ..

أشار ذو الفقار ؛ محدداً مصدره .. اقتربا من ديار عشيرتنا .. طرق البشير على كفه منادياً ؛ ظناً منه أن مكروهاً قد أصاب المرأة .. في تلك اللحظات اندفع من جوف الوكر المظلم صبيٌّ يافع نحيف القوام ، أشاح في وجه الغريبين المستنفريْن :
" اذهبا لحالكما ، ولا شأن لكما بنا " .

جزَّ على فكَّيه البشيرُ .. جذبهُ إليه بعنف .. اعتصر عنقه النحيل بقبضة يده ، حتي سال لعابه على جانبي فمه .. زحفتْ العجوز على بطنها .. رآها كسيحةً هزيلةً منتحبة ، تملأ فمها باللعان والسباب على ولدها المارق .. راح البشير يكيل له اللكمات ، حتى كاد ينتهي تحت مطارق كفه الغليظة ، لولا أن أدركه ذو الفقار ، حيث نجح بالكاد في تخليص الصبي الذي فرَّ هارباً باتجاه البراري والأحراش البعيدة .

على أثر ذلك ، راحتْ الديار المترامية في تباعد غير منتظمٍ، تفرِّخُ ساكنيها تباعاً . بدا رجلٌ هادئ الوجه ؛ أدرك أنهما غريبان عن ديار الكرمة .. بادره البشير أنهما من فريق الخفر ، الذين عسكروا قريباً من هنا ، وقد شحَّ الماء فبحثا ، حتى عثرا على بئر وادينا .
أحس البشيرُ شيئاً من الدعة ، في ملاقاة وجه الرجل ، سأله ، فأفاد بأنه (شويح الراوي)، قال مسترسلاً :
" وهنا تسكن عشيرة (الكرمة)، وهذا جبل الوادي " .

من ورائهم صرختْ العجوز ، تُحثُّ الغريبين على الهرب ، تحسَّباً من عودة ولدها برفقة ملاعين الجبل . تأمَّلَ البشيرُ وصَاحبه ساكني ديار الكرمة ، حين خرجوا تباعاً، وقد طفحَتْ وجوههم بشحوب وصفرة . أشار العم (فيَّاض) بطرف عينه لامرأته ، بأن تلزم وابنتها الوكر ، ولا تخرجان منه ، حتى يتكشَّف الأمر .

لم يكن من بين ساكني الكرمة ، من استنكر فعل الغريبين غيرها .. صفوانة امرأة رفاعي الصياد ، التي امتصَّتْ شفتيها ، مطلَّة من خلف حماقتها وجهلها مرددة مُرَّ قولها :
" عشنا ورأينا كيف يضربنا الغرباء في ديارنا " .
على صوت الجلبة اندفعتْ ابنتها ؛ بوجهها الخمري ، وشعرها المجدول تحت عُصابة بيضاء من الحرير ، ولا يزال أثرُ للنوم المعجون بالشعفةِ والخمول ؛ يرسم خطوط الوسادة الخشنة ، على صفحة وجهها البيضاء ، تتنمر لنصرة أمها ، وتشحذ لسانها بالسؤال عن مصاب الديار . بادرتها أمها بنبرة آمرة :
" الزمي الوكر يا بنت " .
" ليس قبل أن أعرف ماذا يحدث يا أم .. "
تناهتْ لمسامع البشير كلُّ الأصوات ، لكنه ركن إلي عينها .. تلك الفارعة الهيفاء ، نبس لصاحبه :

" ألم يأن للسندباد أن يدرك مرساه ؟! " .

هام على وجهه البشير ، غارقاً في لج نفسه ، فيما أحس رفيقه ، شيئاً من سوء العاقبة مع مرور الوقت ، فجذب قائده .. دعاه للعودة إلي المعسكر حتى لا يدهمهم المجهول الآتي من وراء الجبل .. اتجه البشيرُ إلي شويح ، رآه وقد تبدَّل حاله ، فصار مستَنْفَراً، جهمَ الوجه مضطرباً، يتعجل أمر انصرافهم من المكان .
* * *

-4-
إنني لا أخشى أولئك القادمين من وراء الجبل ..
هكذا طغي صوت ابن نعمان البشير على الأصوات كلها .. في هذه اللحظة خرجت عن صمتها الهيفاء (نرجس) بعد أن همستْ لها أمها بما حدث .. نطقتْ بتَهَكُّم والتواء ، كأنما أرادتْ أن تجْرَحَ اعتداد الرجل وتهزَّ ثباته ، قالت وهي تواجه البشير بعينيها الواسعتين :
" إن كنت لا تخشاهم فهذا شأنك .. أنت غريب على أية حال ، أتي لإتمام حاجة ويرحل ، أما نحن فإننا نخشاهم ، ونخشى على أنفسنا وديارنا من سوء عاقبة التطاول والتعدي على حرمات الديار الآمنة ليلاً " .

انبرتْ صفوانة تُعَضِّد مقال ابنتها ، بأن الكرمة بعد قليل ، سوف تحصد كل ما جناه الخفيران خراباً، على يد قطَّاع البر وقراصنة المالح .. تعجَّبَ البشير من خنوع الرجال ، وأشد ما استرعاه ، أن يكون من بينهم هذا الفتي الخائن الذي يُدعي (فوَّازاً) .. تساءل متأسياً :
" أيمكن أن يتواطأ مع الملاعين ، ضد عشائر واديه " ؟!

هكذا عبَّر الرجل بإشارة إصْبُعه تجاه البراري .. عندئذٍ بدا صوتٌ غليظ تَشِعُّ من نبراته حكمةٌ مفقودةٌ في المكان ، أسرَهُمَا بجرَأته ، قالها :
" أنتما في أمان السماء ورعايتي " .

ما كانت هذه الجرأة تصدر إلا عن المُعلِّم سلطان ابن سالم ، الناجي الوحيد من القارب الهالك في بطن المالح ، وفقيه البوادي ومعلمها .. ربتَ على كتفيَ الخفيرين .. فيما أطلقَ سراحَ ابتسامةٍ عريضةٍ هادئةْ . بادره البشيرُ مسترسلاً :
" نحن من فرقة خَفر السواحل ، وجئنا من أجل دراسة الجزيرة المنكوبة ، ومعرفة أسباب غرق المراكب ، وانتشال ما أبقته منها تيارات الأعماق الجارفة " .
تبسَّمَ المُعلم بانفراجة حاجبيه ، معلناً المسكوت عنه في حديث الخفيرين ؛ بإشارة منه للؤلؤ والماس ، وكنز صيادي البادية الأوائل . سألاه عن نفسه .. تهلَّلَ وجهُه .. أجاب بتفكُّهٍ يشي بروحٍ راقية مطمئنة :

" أنا (الناجي) .. هكذا كما يناديني أهلُ البوادي" .

ومن حديثه ، فهم البشيرُ، أن (النَّاجي)، ليس هو الاسمُ الحقيقي للرجل .. لكنه أحسَّ منه عاطفةً، ظل يجاهد من أجل أن يجد لها مبرراً، غير الجرأة والإقدام .. ليس فحسب ، بل إن الملاعين أنفسهم يهابونه ، ويخشوْنَ قدَّه وقدْره في رِبع هذا الوادي .

لم تكن تلك العاطفةُ فقط من جانب البشير ، وإنما كذلك ارتدَّ صدي وقعها في قلب ابن سالم ، فيما أبداه ، كلٌ في وجه الآخر . كان المعلم يتأمل البشير ، وكأنه يري في صفحة وجهه إطلالة أبي وقوة بأسه ومراسه .. حقاً، لم يتنبه أحد إلي هذا ، غير المعلم ابن سالم الذي رمقني بطرف عينه ، وأنا أتابع خلال طاقة صغيرة بالوكر كل ما يدور بالخارج ، من أحداث ، ما كانت لتؤرق أبي في مضجعه ، أو أمي التي انتقلت إليها عدوي أبي في عدم الاكتراث ، والاحتفاء الخاص بطقوس النوم وتفضيله عن مواجهة أحداث هذه العشيرة التي وصفها بالمسوسة ..

أفاد ابن سالم للغريبين بأن الكنز حقيقة لا وهماً، وأن أجدادنا عثروا عليه بالفعل ، ولكن اللعنة على المنطقة التي تدعي بطن المالح .. هزَّ البشيرُ رأسه متبسماً بنشوة نصرٍ عارمة ، كأنما أراد أن يؤكد للمعلم روعة ما بُشِّر به .

* * *

-5-

تأمل البشير وجه ابن سالم المعلم في مصلاته التي خصصها لتعليم أبناء العشيرة نهاراً، والتسامر مع كبرائها ليلاً .. كان مكدوداً ضائق الصدر في تلك العشيةِ الباردةِ من ليالي المالح المقمرة ، وبصوت حزين راح يتحدَّثَ المعلم للبشير ، كأنما تمثل حضورَ أبي فيَ هذه اللحظات العطشى لذكر الأخلاء .. وبلسان الزين تكلم المعلم ، قائلاً :

" وحدك قد نجوتَ يا ابن سالم ، ووُهِبَتْ لك الحياة ؛ بعد أن هلكتْ (الفلوكة) بمن عليها . لم ينجُ ممن خاضوا رحلتها الأخيرة غيرك .. أنت الناجي الوحيد ، في ذلك النهار الغابر ، من أجل ذلك عليك أن تؤمن في ذاتك ، بأنك ضمير هذا الوادي ، وتاريخه ، بعد أن هلك الجميع " .

هكذا تذكَّر ابن سالم ، ما تعرَّض له وسط الأمواج السوداء ، بجزيرة بطن المالح بإكباش وما كان لمثله أن ينسي ما أسماه بالمختبر ، الذي انشق المالح عنه من كل اتجاه .. نظر للبشير بعد أن أفرغ صدره من زفير طويل ، قائلاً فيما كان :

" عاركتُ الموت يا ولدي .. صارعتُ الدوامات العنيفة ، بروحٍ تتحدي الاستسلام للهلاك الأكيد .. تساءلتُ حينها : هل أنا حقاً أموتُ الآن مع من يموتون غرقاً ! .. أبداً لم أكن أصدق أني أخوض سكرات الموت .. آه يا بشير ، ما أغلي النفس ، وما أقسي اللحظات ، التي يكون

فيها الإنسان ، بكل ضعفه وهوانه ، في مقابلةٍ مع الموتِ في أرضه وتحت سمائه .. ذلك الأفعوان الكبير ..
تلك هي منطقة الأعاصير الحلزونية .. الحد الفاصل بين التقاء التيارات الباردة والحارة .. منطقة تصادم واختلاط كتل المياه الشرسة .. منطقة تعج وتثور بضجيج غير مألوف ، لتبرق فيها آلاف الكائنات البحرية المضيئة التي تتواثب بين الأمواج في رقص وحشي . منطقة تحوم فيها زعانف أسماك القرش ، وظهور عجول البحر ، وأشباح حيتان العنبر التي تظهر ، كالظلال المتحرِّكة في خلفيةِ سطح البحر المضاء بكشافات الأعماق ؛ لتندفع كائنات بطن المالح ، والحيوانات الأخرى التي يلتهم بعضها بعضاً في نهمٍ .. تلك هي منطقة الوادي الموطوء بقراصنة الجن ، وأفعوانات المالح ، والدوامات ، والمد الأحمر ..

رأيتُ من حولي الرفاق يصرعهم الموج ، ومنهم من يقذفه العباب ، لأذرعٍ فوق السطح ثم يتلقَّفه التيار الجارف نحو المجهول ، وفيما كنت منتظراً نفس المصير ، رأيتني متشبثاً، أحاول أن أقبض على شيء طافٍ فوق السطح الفائر .. ظننتُه شيئاً من أسمال الأعماق يُقَلِّبُها التيَّار .. تشبثتُ به بقوة .. كانت يد الله !!
* * *

-6-
تسلَّل البشير وحيداً متخذاً سبيله إلي البحر ، مظاهراً كل شيء ، في طريقه تجاه الساحل . هناك يستعيض بالقارب الجساس عن كل ما سواه ، فيصعد مسترخياً على سطحه المتألق بالزخارف الفسفورية التي تأتلق كاللؤلؤة بين ظلمة البحر ودجى الليل البهيم .. تتداعي له عيون نرجس وصدودها الدائمة له ، ومتذكراً أحاديث ابن سالم ، عن أحداث الوادي والجبل ، والزين الجساس ، الذي لفظ آخر أنفاسه ، وهو يهمس في أذن ابن سالم ، بكلمات أصرها الأخير في نفسه ، فلم يحدث بها أحد قط .. قال :
" يا ابن سالم ، تركتُ لبكر الزين وأمه ، عناية السماء ، ورعاية البشير " .
كلمات لم أدرك معناها ، ولا أمي في حينها .. فقط تلألأت عين المعلم ، وفاضت بالدمع عيون البشير الذي نظر بعيداً، باتجاه الجزيرة المنكوبة ، وقال متوعداً :
" سيكون الموعد إكباش يا جسَّاس البحر ، ولن أخذلك .. آه .. ما أحوجني لاختراق الأمواج ، واجتياز الشعاب الموغلة في القدم " .

ومن بين دفاته ، رقصتْ خيالاتُ قلبه الغض ، فهبط طيف نرجس فوق الموجات السوداء .. تذكرها .. كانت تتحدث إلي أمها بمجلس العجائز ، ككل الذين تحدثوا في الوادي ؛ عن ذلك الغريب الذي ذاع صيته بين عشائر الوادي خلال سنوات ثلاثة قضاها فوق ضحاضح البحر وثوراته ، وبين قرائح عشائر آل الوادي المتناحرة ، وأحداثهم المتواترة ، فصار مضرباً للجمع بين التفكه والرصانة ، والخفة والحصافة .. وصفته نرجس بصاحب القلب الميت ، والأفعال

الصبيانية وقت الكساد والوفرة . أما (بدور) ابنة عمي ، فقد رأت فيه إلهاً أسطورياً، صنع عزَّ الوادي ومجده ووقاره . كما اتفق الجميع ، وبما لا يدع مجالاً للخلاف في الرأي ، بأنه قد أنهي زمن استعباد الملاعين لعشائر الوادي ، وقاتلهم وتعقبهم ، حتى خارج الحدود .. كما أعاد تجديد (المُصلَّى) المهجورة ، وجعل الصغار يتردَّدون عليها مرة أخري ، للتعاليم على يد شويح الراوي ، والمُعلم الناجي "سلطان بن سالم" .
* * *

-7-
ضرب البشير مقلاع القارب بعزمه ، حتى أصاب به الطمي اللزج .. تحرك نحو الداخل ، قابضاً على المجدافين .. سري مع الماء والليل والوحدة الموحشة .. تنفَّسَ من ضيقٍ .. أوقف حركة يديه .. توقف القارب في الماء شيئاً فشيئاً . نظر يمنة ويسرة .. وعلى الامتداد السحيق أحسَّ برعشة الماء .. تحركتْ أحياءُ المالح .. شعر بالقارب يضطرب في غير هدي .. تحرك الموج من الرقيقةِ إلَي اللَّطمة .

سمع باتجاه الديار البعيدة ، صراخ النساء ، راح يتيه في الصلصلة التي بدأت تتصاعد شيئاً فشيئاً، مع صهيل الخيل وجلبة الهرولة . خطف المجدافين بقبضتيه .. تحرك تجاه الساحل .. سأل عن مُصاب الوادي . صاح الراوي ، معلناً بأن محاريب الجبل تنهار ، وتدك ديار الوادي ، بصخور تتهاوي كالمطر الرعدي ، فيما ظنت الصغيرة بدور بأن أشراف قبيلة (بني حميد) يُغيرون علي الكرمة ، في هذا الهزيع من الليل . راح الراوي يفتش في كل الوجوه بغير هدي .. لم يكن بهيئته في تلك اللحظات الزاجرة .. أحس أنها القيامة .. جري .. سقط على الأرض .. تمرغ في التراب .
صاح البشير في جموع الناس .. حثهم على الثبات .. أمرهم بإخلاء الديار ، لحين انتهاء الجبل من قذف صخور محاريبه المتهاوية ، خرجتْ الأفواج من ديارها ، راكضة تجاه الخلاء .. حتى الخيل والجِمَال والماعز والبقر والقطعان والكلاب والفئران والهرَّوَات ، كلٌ قد أخذ استعداداً للرحيلَ ، خوفاً من الهلاك تحت الصخور المهلكة .

لم يستطع (شويح) الكلام .. فقط نطق اسماً واحداً متقطعاً : " سـ لـ طـ ا ا ا ن "، وراح مغشياً عليه .. شرع (رفاعى) وامرأته صفوانة في إفاقة الراوي ، فيما جري البشير تجاه المُصلَّي القريبة ، حيث ينام المُعلم ابن سالم فيها لحاله .. حاول العم فياض أن يعترض طريق البشير .. جذبه من قميصه ، محذراً إياه ؛ مغبة الاقتراب من صخور الجبل . كان كلَّمَا أمسك بطرف قطعة من ملابسه ، يخلعها ويواصل ركضه .. حتى توقف فياض ؛ مشترياً روحه من مغامرة انتحار ، رأي أن ابن نعمان مُصراً على خوضها ، إنقاذاً لحياة المُعلم . عندئذ أخذ فواز جانباً آمناً .. برقتْ عينه ارتياحاً لتلك المغامرة ، ملتمساً ألا يعود منها البشير سالماً .

تهكَّمَتْ (رباح) على زوجها فواز .. ألقتْ بكلماتها النارية على قلبه .. قالت بأن بيتها القديم في "الدراويش" ينتظرها ، والقوت في (الشخاليل)، وليس في المالح المزعوم ، بعد أن انهزم أمام صخور محاريب جبل الوادي من ناحية ، وتلويح أشراف (بني حميد) بالثأر من الكرمة من ناحية أخري .
لطمها فواز ، فطرحها أرضاً، فيما راح الصغيران حمدون وفرحة يقذفان أباهما بالحجارة ثأراً لأمهم ، يتعقبهم أبوهم في اتجاه البحر ، ويتوعدهم ، فيما اكتفتْ (رباح) بنظرة نارية شقَّتْ بها ظهر زوجها ، وهي تجزُّ على أسنانها بحرقةٍ، وتأخذ نفس الاتجاه للساحل .

اندفع البشيرُ تجاه المُصلي ، رآها وقد استوتْ أطلالاً، نالتْ منها الصخور المتهاوية .. كانت نظراتُه ترتفع إلي قمة الجبل ، فيتراجع كلما اقترب ، تفادياً مما يلقي به الجبل من محاريبه المتهالكة . نظر من بعيدٍ .. رأي المُصلَّي وقد استقرتْ بعضُ كتلِ الصخر فيها . فرَّتْ دمعةٌ من عينه حارقة ، صنعتْ أخدوداً غائراً، وشقَّتْ طريقاً مالحاً إلي فمه . أدرك حينها ، أن المُعَلمَ قد مات .
لم ينجُ الناجي من الموت هذه المرة .. مات سلطان ابن سالم ، بعد أن لمح البشير طرفاً من بُردته الخشنة ، تظهر تحت الركام ، وإحدى ساقيه ، التي تعرَّتْ بيضاءَ سافرةً كحليب الصبح .
هكذا ندتْ عيني بدمعةٍ أحرُّ من دمعتي على فراق (الزين) .. قلت : " هل مات معك سر (الجساس) يا مُعلم الوادي ؟ .. وحدك عرفتَ ولَزِمْتَ .. ووحدي لَزِمْتُ دون أن أعرف ، فإلي أي حدٍ يمكن أن تسيطر علينا الأحزان يا أمي ؟!
* * *

-8-
كان أبي قد سمع نداء البشير بالخارج . دعاه للمرة الأولي ، وما كان ذلك من خصال الزين . لم يكن يجيد ضيافة أحد . جلس الاثنان خارج الوكر ، فيما همَّتْ أمي ، تشعل نار الموقد ، لإعداد الحمص المسلوق الذي يحبه البشير . أحسستُ أن خيطاً من الاتصال بين أبي والبشير قد انقطع ، بعد أن مرَّتْ فترة طويلة من الصمت ما لبث أن قطعها (الجساس) حين سأل الآخر عما أصبَرَهُ على البقاء في وادٍ ممسوسٍ كهذا .

أحسَّ البشير بشيء من الحرج ، فتنبَّهَتْ أمي لغلظة زوجها .. أشارتْ إليه بأن ينتقي كلامه ، أخذ البشير شهيقاً طويلاً، رامياً بنظرة إلي المطلق قال :
" يا أبا بكر ، إن بقاءنا بالوادي تعدي معسكر خفر السواحل بالقرب من إكباش ؛ إلي البحث عن القيمة والأصل والأمل .

كلمات تعجَّبَ لسماعها الزين ، ولسان حاله يُقرُّ ببلاهة هذا المخبول ، الذي جاء يبحث في بطن المالح ، وأسفل محاريب الجبل عن أشياء لم يعد لهَا أثراً بالوادي منذ أمدٍ بعيدٍ . علم

البشير أن وقع كلماته على قلب أبي سيكون أشد تعقيداً من لغز الجزيرة المنكوبة .. فشرع مفسراً، بأن الأمل هو أن يعود المالح عذباً، والقيمة هي أن يجد الإنسان نفسه حيث يضيع كل شيء ، أما الأصل فهو أن ننقر الأرض ونغرس الغرس ، ونملأ الوادي من جديد .
* * *

-9-
أخبرنا البشير نعمان أنه لما جاء مع الخفر ، لبحث منطقة بطن المالح بإكباش ، إنما وضعَ نُصبَ عينيه حواراً آخرَ مع الوادي . طرفٌ من هذا الحوار يكمن في الدليل الوحيد الذي يقوده للبحث عن أبيه ، الذي لا يعلم مستقره ، إن كان حيا أو ميتاً، كما أنه لم يكن يعرف عنه ، ولا عن الوادي إلا ما يزيد جهله بهما .

استرجع البشير سنوات حياته الأولي ببلدة التجار في الحضر .. كان أول ما علق بذهنه حين أخبره الرجل الذي تكفَّل برعايته أن له أصلاً بدوياً . هذا ما دلت عليه رسالة تركها أبوه ، لتصبح الشيء الوحيد الذي يدل علي أصله وماضيه . رحل الأب ، في بلاد الله البعيدة ، دون أن يترك أثراً، غير أحرف هذه الرسالة التي أكل الدهر عليها وشرب ، مرجحاً عثور أمه عليها في خراجه ليلة عرسهما في الحواشين .

وعلى ذكر الحواشين ، تَنَبَّه أبي معتدلاً في جلسته ، شاخصاً .. فيما استرسل البشير راوياً عن بلدته القديمة ، أنه لما انتهي تكليفه مع خفر السواحل ، علم عزم القيادة ، ارتياد البحر وإقامة معسكراً للقوات بالقرب من وادينا ، لمراقبة ودراسة الظواهر التي تُحْدثها منطقة إكباش وجزيرته . أحس أن التدابير تصنع له قدراً بهذا الوادي ، الذي ظل مرتَبطاً في عقله بريح أبيه ، بعد أن سيطرت عليه فكرة البحث عن أصله من جديد .. طلب من قيادته مدَّ فترة تكليفه تطوعاً، مغتنماً فرصةً سنحتْ لإحراز خطوة مهمة على طريق البحث .

كان لحديثه أثرٌ واضحٌ على وجه الزين ، الذي بدا على غير عادته فضولياً .. نما لدي البشير إحساس بأن الجسَّاس يعيره أذناً تسمع بنهمٍ واهتمام غير عاديين .. استمرا للحظاتٍ يتأملُ كلٌّ منهما الآخر ، فيما دارت في رأس الزين الدوائر ، وهو يحاول أن يستجمع الماضي الذي انقضي بضياع خمسة عشر عاماً بعيداً عن البحر .. تنهد الجساس طاوياً الحوار بصفحة جديدة عن أحوال المالح ، فيما أفاد بأنه أعدَّ للمالح قارباً جديداً بصواري وكلاَّبات وأشرعة عنيدة ؛ لمواجهة غرابة أطوار البحر وتحولاته .

هكذا كان الغموض يكتنف الزين الجساس في حياته ، فلم يكن بالقدر الذي يؤهله لشياخة الكرمة ، أو يجعله كبيراً من كبرائها ، على الرغم مما أحيط به من علم بأمور كثيرة امتنعتْ بسمُوِّهَا على أدمغة ذوي اللِّحى من كبراء الوادي . كان يتحرك ببطء ، ويفكر بعمق ، ولا

يحضر المشاجرات ، ولا يجلس في صلح بين قبيلتين ، ولولا شطارة أمي ؛ لما جئتُ أنا إلي هذا العالم ، أحمل ملامحه ، ويسكن بين ضلوعي قلبها .
* * *

-10-
أورثني صناعة القوارب فصرت أمهر منه . هكذا شهد الناس لي ، أوقات العسرة ، والمد الأحمر ، ودوامات الأعماق . اصطحبني بالقرب من بطن المالح .. غمس رأسه في الماء إلي عمقٍ قريبٍ .. استغرق عدة لحظاتٍ، كأنه يتنصَّتُ بسمعٍ مرهفٍ إلي الأعماق السحيقة الساكنة .. أخرج رأسه من الماء .. نظر في الاتجاه الذي ينبغي أن تمضي قوارب الصيد فيه ، بل إنه استطاع أن يحدد أماكن تجمعات الأحياء البحرية ، والأنواع المختلفة من الأسماك الصائتة كالربيان ، والناعقة ، والعرائس الشادية ، والأرمادو ، والصرار ، والطبلة ، والشبوط ، والأسبرط ، واللوتش ، والغرنار .

قال لي : " جَسُّ المالح ليس بالشيء اليسير لبصيرة من أبصر يا بكر ؛ إنه علم عظيم ، وكلَّما انخفض صوتك ، كان ذلك دليلاً على سمو بصيرتك ، ورهافة سمعك ، حتى تستطيع أن تتسمَّعَ الجرذان في جحورها ، والنمل في سراديبه ، والثعابين في حواكيرها ، والطيور في أعشاشها ، والذئبة في مكامنها ، وأحياء المالح الصاخبة في الأعماق .. في هذه اللحظات فقط ، تستطيع أن تجسَّ المالح .

إن للمالح في الناس شؤوناً وأحوالاً .. وليس جس المالح ، بمجردِ النظر للظاهر من الرؤى العابرة .. فقد يشوبه هدوء نسبي .. حتى إذا ما أمنه الصيادون ، فنازلوه ؛ انقلب فجأة إلي ثورة وهلاكٍ أطاحتْ بهم ، تماماً مثلما حدث للأولين ، من صيادي البادية ، في الوادي ، الذين غرقوا بعد أن عثروا على بطن المالح الزاخرة ، حتى ظهر فيمن نجا من القارب الهالك قديماً، من عرف فكرة (الجس) .. فتوارثتها الأجيال .

هكذا تشبَّعْتُ بالزين الجسَّاس ، وما كان ليملأ فراغ نفسي من بعده ، غير أكثر الناس شبهاً له ، البشير نعمان ، حتي أن أمي ، راحتْ تروي لي الأقاصيصَ والملاحمَ عنه ، تماماً كالزين ، وهي تُكحِّلُ عينيها بتفاصيل وجهي الغض .. تهدهدني ، وتداعب خصلات شعري الفاحم الكث .. وأنا أشعر بين ذراعيها بلذة وأمنٍ، وأتمني أن لو صرتُ مثل البشير لأحظى بمثل ما حظي به ، في ربوع البوادي .
* * *

-11-
أنكرتْ نرجس كياسته البشير في طلبها من أبيها ، قالت إنها لا تستطيع أن تضع حياتها ، رهينة لحياة هذا الميت فوق الأرض وتحت الماء . قالتها في وجهه .. تنحنح أبوها .. نهضتْ

العجائز من جلستهن في وكرهن الذي خُصَّصَ لمثل هذه المداولات . لم يجد رفاعي كلاماً يواري به فجاجة قول ابنته ، غير أنه تأسف ، وما كان يملك أكثر من ذلك في حضرة صفوانة ، التي تحل وتربط ، ليس فقط في الوكر ، وإنما في الوادي كله .. إن لها في كل دار من ديار الكرمة قدماً، إذ توشم فتياتها اللائى اكتملن ، وبتن أردافاً تئن براح الليالي ، وبرودة سفح الجبل الرهيب ..

أحستْ نرجس بأنها تحاملتْ على البشير .. هذا ما تردد صداه في نفسها ، وهي تتودد للمالح ، في غروب يومها التالي ، وتحكي لبدور طرفاً من حديث العجائز في وكرهن .. يشفُّ وجه البشير ، بحجم عرض البحر في عينيها ؛ فتراه مخذولاً حزيناً لصدودها ، وارتكانها لآراء العجائز بمجلس أمها . قالت إنه غريب مجهول الأصل والنسب ، ولا تزال الكرمة تبحث له عن مكان بينها .

اعتدل شويح الراوي علي حصير المُصلي .. كرر على مسامع البشير حديثَ المُعَلم بن سالم إليه قبل موته ؛ بأنه لا ينبغي النظر للوراء ، وعليه أن يثبت على الأرض ، ويعتدل في الاتجاه إلي البحر ، متنبَّهاً لما هو مقدم عليه ، فالمهام جسام ، والتشتُّتُ بين نرجس والبحر ، يجعله فاقداً للوعي ، وربما دفع ثمن اجتزائه ؛ حياته كلها في خضم المالح الثائر .

وحدك يا ابن نعمان تستطيع أن ترد أشراف بني حميد عن الكرمة ؛ بصلح القبيلتين .. وأن ترفع بطش الملاعين ، وتقاوم مكر فواز ، ومكائد الغجَرية .. أن تعزَّ غلماننا ، بعد أن ساءت أحوالهم ، من جرَّاء ما فعلوه مع الأشراف في ليلة غابرة .. الآن باتوا في ديارهم خاسئين .. استرفدوا سبلاً للقحط والجفاف والفقر ؛ ما دعا إليها داعٍ . أحسبها لعنة بني حميد ، وبكائهن على أشرافهن ؛ الذين راحوا ضحايا الحماقة والجهل ، وهذا ثأر السماء لهم .. هكذا عبَّرتْ ضاحية عما آلت إليه أحوال الكرمة من قحطٍ وجفاف تسبب في تبديد المورد ، في إشارة منها لإدانة فواز .

رأيته يتطاول عليها ، يَسُبَّها أمامي . هممتُ أن أصيبه بهلبٍ حديدي فأشجَّ رأسه ، غير أن أمي جذبتني إلي صدرها وهمسَتْ في أذني بكلماتٍ أكرهها ، بأنني لم أزل صغيراً، أما هو فزنديقُ الكرمة وطاعونها .. نظرتْ إليه شذراً، راميةً إياه بكل ما يكره ، اقتربت منه في تحدٍ، قالت :
" وحدي أعلم ما تخبئه في قريحتك يا (ابن رابحة) .. أعلم سر شُح الزَّاد بين يديك .. أعلم مستقرَّكَ ومستودعك .. وإن الغد لقريب ، ويعود البشير من بطن المالح إلي كرمته من جديد ، وسوف تمثلُ بين يديه ذليلاً خاسئاً كما كنت ، وعندئذٍ سوف يسائلك في الزاد والمورد الذي أضعته ، إسرافاً في الحانات والمواخير التي ابتزَّتْ أقواتنا ، واحتكمَتْ على أيام المالح التي أخذت خيرة رجالاتنا وبنينا .

تراجع فواز بكيده .. رمي أمي بنظرة هادرة كثورة البحر .. زحفتْ أمه علي أطرافها .. خلعتْ عصابة رأسها .. راحتْ تهيل اللعنات ، بصنوفٍ ما شهدتُ لها مثيلاً من قبل . كأن ناراً تأكل أحشاءها .. ظلَّتْ تصرخ حتى انصرف ابنها متلاشياً بين الجموع .. جذبتني أمي ، ومضينا إلي الداخل .. قلت لها :
" متي وطأتُ المالح مع الغلمان ، سأتزوَّج بدور يا أم ، وأصنع قارباً لي وحدي مثلما فعل الجساس الكبير " .
* * *

-12-
كل الأشياء تتبدَّلُ .. يتقادم صنع أبي .. تتقادم الديار .. النخيل .. لا شيء إلا ولفَّته يَدُ القِدَم ، ومع تراجع المالح بشؤون الكرمة وانحسار زادها ، وتصدع الجبل من فوقنا ، وتلوث مياه البئر ، واختفاء البشير ، الذي لم يعد منذ أبْحَرَ في بطن المالح ؛ تستوي بدور على السطح ، جديدةً كحليب رائقٍ .. كصباحٍ يشق الليل ؛ فيجذبُ الكائنات لخوض جديد ، وطواف آخر .. إنها تملأ الوادي كله .. تهز الأشجار .. تصعد الجبل .. ترش الفتيات بماء البئر .. تحاكي الكبراء .. تناوشهم .. تقذفهم ؛ فيقذفونها بالحصى والتراب .. تفرُّ ضاحكةً .. يضربها الراوي على مؤخرتها فتبكي .. تنفلتُ من بين يديه .. ترميه بالشتام ، وهي تجفف دموعها الحارة الصغيرة ، وعلي وجهها تطفو ابتسامة بريئة تجاهد أن تكتمل .

يقسم الراوي أن يشكوها لفياض وزهيرة ، فتُخرج لسانها وتضحك .. قائلةً :
" ينبغي أن يموت كل عجائز الوادي ، الذين لم تعد لهم فائدة ، واكتفوا بوهم ما حقَّقُوه من مجدٍ قديم .. "
أستحلف الراوي ألا يغضب منها ، وألا يشكوها :
" إنها لا تزال صغيرة وجاهلة يا عم شويح "
" لا بل كَبُرَتْ بكل ما تراكم على رأس (شويح) من شيبٍ يا ابن الزين .. تجاوزتْ الرابعة عشرة ، واهتزَّ صدرها .. شعرتْ بكل ما تشعرُ به أنثي ناضجة .. ألم تهتز بعينك يا بكر ؟! "
" نعم .. لكني أشعر بخوف يتلبَّسني ، كلما حلمتُ بأيامي القادمة معها " .

جذبني الراوي من يدي إلي وكره .. أشعل نار الموقد الفخاري ، ورماها بحفنة من بخور الصندل ، فتصاعدتْ الأدخنة مثل سقيفة بيضاء .. تكحَّلَ بالنظر العميق إليَّ، قال يا ولدي .. لم يمت من أنجبْ مثلك . كان أبوك حَبْراً من أحبار الوادي ؛ إن لم يكن الوحيد الذي استطاع أن يدرك الكنز الأكبر ، في خضم المالح ، بعد أن تحدث إليه بفيضٍ من البوح ، وهو في معزلٍ عن عراك الناس في البرية .. هكذا قال الراوي ، سألته :
" هل كلَّم أبي البحرَ حقاً يا عم شويح ؟ "

ضحك الرجل بعزمه .. حتي كاد يهوي علي ظهره ، وهو جالس أمام الدخان المتصاعد ، قائلاً :
" كان أبوك يكلم البحر والنخل والرمل والسواري والجرذان وثعابين الصحراء والعواصف ودوامات المالح والأحياء المائية .. غير أنه كان لا يكلِّمَ البشر ، من ساكني هذا الوادي عدا سلطان بن سالم ، و البشير نعمان "
كانت تجمعهم ملامح وخصال تتشابه لحدٍ بعيدٍ حتي أن المُعلم والجساس ، كانا قد استنكرا معاً، وعلى الأشهاد ما فعله غلمان الكرمة بأشرافٍ بني حميد غدراً في ليلة من ليالي المالح الآسفة .
* * *

-13-
لم يكن النزاع – فيما كان – بين الكرمة وبني حميد ، حول وضع قيود وحدود تنظم الصيد ، وتتعقب مواطن الماس في أصدافه . إنما الشُّقة والعداء اللذان أطبقا سماء وادي الجبل على أرضه ؛ فخالطتْ الدماء عذوبة ماء البئر الصافي - وفيما ورد على ألسنة الرواة قديماً - ؛ أن غلاماً من بني حميد عشق (كرميَّة) حسناء ؛ عشقاً بلغ من الصيت مبلغه ؛ ولما ساءتْ العلاقات ، أجمع الرجال على أمرٍ، توافدتْ لأجله شيوخ القبائل المجاورة ، حفاظاً على أواصر الوحدة والتعاون بين العشيرتين .. ولولا ما صدر عن عجائز الكرمة ، لقضي الأمر وتمت الزيجةُ لولا أنهن أمسكنَ بالتعاويذ ، وأطلقنَ التمائمَ، وصنعنَ ما يحلن به دون إتمام ما تعاهد عليه الطرفان .
صرخن في وجوه الغلمان :
" ستنسلُ (الكرمية) من غلام (بني حميد) ولداناً مهجنين ؛ لا ينتمون للكرمة ، وسوف يعضد ذلك من شأنهم فينا ؛ لأن غلمانهم أكثر من غلماننا ، وإناثهم أقل من إناثنا ، وإذا ما أبحنا الخلط بين العشيرتين ، فسوف تحمل أرحامنا مجداً لهم وقوة في العدد والولد ؛ ينتهي معه مجدنا وعزنا ، ويكون الأمر كله لبني حميد ، بعد أن تنتهي الكرمة من ذاكرة الأحفاد جيلاً بعد جيل " .

إن الزيجةَ مشروطة بإدماج العشيرتين يا أشراف بني حميد ؛ وتحت لواء الكرمة ؛ وعلى أن يدين بنوكم لنا بالولاء ، ونصير عشيرة كبيرة واحدة .. هكذا اشترط غلمان الكرمة . أما العجائز فكنَّ يعلمن أن جواب الأشراف سيكون الاستنكار والرفض ، حتى إذا ما خرج الرأي من يد الحكماء واختفي العاشقان ، دبَّرتْ العجائز ما دبرنه في المجلس ، وأغار جُهَّالُ الكرمة غدراً على غلمان بني حميد في ديارهم فأبادوا منهم من أبادوا ، وفرت القلة الباقية هاربة في السهول المتفرقة بالصحراء ليلاً . ومن يومها ما نامتْ عين الكرمة عما أصرَّه الأشراف من بني حميد في أنفسهم ؛ من الثأر لقتلاهم ، والقصاص من غلمان الكرمة الذين شتتوا ديارهم ، وقطعوا عليهم الطريق إلي العذب والمالح .

* * *

-14-

أورثني الزين جسَّ المالحِ يا بدور . فقط عليك أن تصمتي .. انظري تجاه النخل على امتداد الوادي .. إلي الأعشاش .. إلي الفخاخ .. إلي كل ما هو دون النظر .. اصمتي يا بدور ، حتى تتكشف الرؤية .. أنت تهزئين بي .. تضحكين مني ، وكأن مسَّاً من الجنون قد أصابني . هل أنا مخبول يا عذراء البوادي حقاً، أم أنك قد سرتِ على هوي امرأة عمي ؛ التي لا تحبني ، ولا تحب سلسال ضاحية والجساس .

تلاشتْ بدور من جواري ، تتبعتها ، كانت ضحكاتها تتصاعد .. اختفتْ خلف القوارب .. تلاشي أثر الصوت ، ناديتُها بعزمي :

بدووور !!

دخلتُ المالح بغير هدي .. أبحثُ عنها بين الفلائك والقوارب الراسية على الساحل .. لطمني الموج الهادر فقذف بي نحو الغريق ، صرختُ .. كان الماء يتسرَّبُ داخل أذني وفمي .. لم أعد أنطق .. لم أستطع السمع .. لم أر شيئاً غير أشباح القوارب وظلالها علي الساحل ، بعد أن غشيني البحر .. رحتُ أتنفَّس بصعوبة .. تناهي لأذني صراخ البنت ، وهو يتشتت في المكان ؛ فيما تتابعتْ صرخاتها تستجدي الغلمان لإغاثتي .

ظل انحسار الموج يجذبني نحو الداخل .. خارت قواي .. قصرتْ أنفاسي وسط موجٍ طامرٍ .. فيما اشتدت عاصفة هوجاء .. خايلني بعدها وجه أبي وأجدادي .. تذكرت ابن سالم المعلم ، وتوهَّمْتُ وجه البشير يتماوج وينطوي على صفحة الماء الفائر ، ناديتُ عليه ناديت بعزمي : " أغثني يا بشير ، بشـ.. شـ يـ يـ ر .. فقدتُ إدراكي بالحياة " .

أخبرتني أمي بأن الرجال أسرعوا إلي الساحل ، بعد أن دوَّي صراخ بدور .. أقلع الغلمان بالقارب نحو الداخل ، وظلتْ العجائز والنساء يترقبن بشفقة . كنت أصرخ ، وبدور تصرخ إلي جواري .. جاهدتُ الغرق بقوي خائرة ؛ حتى قذف الغلمان إليَّ أطواقاً وحبالاً للنجاة ، وبينما كنتُ في اتجاه القارب ، سمعتُ صياحاً عنيفاً . كان حيوانُ مائي ضخم ، قد تسلل سابحاً خلفي حتى اقترب مني ، زاد الصِّيَاح ، وتضاعفتْ الحركة ، تشبثوا بذراعي ، ليجذبوني تجاه القارب الذي كاد يهلك من عراك الأفعوان الضخم ، الذي ظفر بإحدى ساقيَّ في المالح .

بكت بدور ، وقد رسا في قاع عينها شعور بالندم .. قالت أنها السبب فيما أصابني .. قالتها بأسيً، فتبدَّل حال امرأة عمي .. لم ترتح لمقال ابنتها ؛ فيما رفعتْ أمي الحرج عن زهيرة وفياض وبدور ، معلنة الرضا بقضاء الله ومشيئة السماء .

من يومها كبرت بدور ، لم تعدْ ترتفع ضحكاتها ، آوتْ إلي العُزلة والصمت ، إلي تأمل وجه القمر ، إلي وجهها الغض ، وعودها الذي بدأ يتمحور في جسدٍ فوَّارٍ أملس ، وعلى ساقين قويمتين تتخاذلان خجلاً ودعةً، وتنسحبان في هدوء أمام الغلمان .
* * *

-15-
وكعشبٍ بري ضرب فجأة في رمال الوادي ؛ بتُّ أترقبُ سماء المالح وحيداً، حتى بدت الشمسُ طغياناً جديداً يستحكمُ :
" أنت يا طائلة ، بعزمك الخفي وقدرتك النافذة ، وسلطانك الفارق ؛ بين المُدبِّرَات والمُغيرَات .. أنت يا جليلة وناظرة ، بكل ما لك من سطوة ونفاذ . إن القوم ائتمروا ، فبحق من بعثك جديدة قديمة .. مبهجةً مهلكة .. تاجاً من الجحيم والرحمة ، أن تكشفي السر ، وبلعنة الخلائق الدنيَّة، أن تهتكي السِّتْر ، وبمَحْوِ الهزائم القبلية أن تزيحي ما تراكم فوق الصَّدْرِ من سأمٍ، لأري بأي أرض غابت شموسُ البوادي ، وتباعد ذكرُ البشير عن ذاكرة القوم .. فلتبكي يا سماء الكرمة ، فليندك الجبل ، فليستشرِ نحيبُ العجائز في الآفاق البعيدة ، ولتمت الأبقار والماعز والنياق جوعاً، تحت سفح جبل الوادي ، ولتكف الأيدي عن غزل أصوافها وأوبارها ، ولتنسل الغجرية بطون الذل والعار ، وليدب فواز في أدني الأرض ، وفي عرض المالح ؛ بما يُصَعِّرُ خدَّ الكرمةِ بين العشائر المتفرقة ، في السهول المترامية هنا وهناك " .

إن أشراف بني حميد قادمون . ندتْ عيني بدمعة غائرة ، تساقطتْ حال إسدال جفوني ، وانكساري على عكازين غير رحيمين . قلت لعلي أتذكر أني ما زلتُ حيَّاً، حين أتصالبُ مع الغلمان في مواجهة الأشراف .. لقد أعلنوا الثأر منا يا بدور . هكذا نادي المنادي ، وجال الراوي ؛ فيما أعلن (ولي الدين) شريفُ (بني حميد) وحامي ديارهم ، بأنهم لن يباغتوننا بهجومٍ، كما فعل غلماننا بهم من قبل .

ينبغي ألا يبحر الغلمان معاً ؛ فيجهز أشراف بني حميد على الديار ، ويظفروا بفرائس سهلة من النساء والجُهَّلِ والشيوخ .. ينبغي أن نحتاط أمنا ، بغرس ولداننا فوق التلال العالية ، وفي أطراف الوادي ، وفوق النخل المترامي هنا وهناك . كان ذلك هو لسان حال العجائز في المجلس ، فيما توجَّه فواز برأيه للعجوز صفوانة .. إذا ما تفرَّق شمل الكرمة بين المالح والجبل والنخل ، فإن مؤشر ذلك سيكون مزيداً من الإسراف ، وتبديد الطاقات نظير المداومة .

لا حاجة للأشراف من بني حميد في نسائنا أو عجائزنا أو جُهَّالنا .. ذلك عهدنا بهم أبداً .. إنهم لن يأتونا من ظهورنا ، كما حدث لهم منَّا .. إن حديث شريفهم ظاهرٌ، كوجه الشمس ، فالثأر من الغلمان أنفسهم يا حكيمات الديار ، وإني ما رأيت نبلاً، بقدر ما رأيت من بني حميد وأشرافهم . هكذا كان قد وصفهم البشير من قبل ، فيما أكده المُعلم (سلطان ابن سالم) ؛

أثناء حديثهما إلي ولي الدين في أعقاب الإغارة الأولي .. أما فواز ، فقد قطب جبينه صائحاً، بأن على الكرمة ألا تأمن مكر بني حميد ، واصفاً الأمر بالمكيدة التي تحاك ، وتُدبَّر ضدَّ الكرمةِ بمكرٍ وخسة .

كان الشرر ينطلق من عين فواز التي سكنتْ عين أمي .. لم ينس بعد ، كيف كانت وراء طرده ، وإقصائه خارج حدود العشائر .. تحركتُ قاطعاً نظرته الحادة لها . رفعتُ عصاي في وجهه . حال بيني وبينه الغلمان .. كادتْ أن تصبح مشاجرة ؛ لولا صوت شويح الجهوري ؛ الذي نادي بعزمه وراء الحشد ، وبأنفاسٍ لاهثة ، أعلن أن أشراف بني حميد ، قد تسلَّلوا بالقرب من الجبل ؛ وأصبحوا محتشدين لنا ؛ وأنهم قد أمهلونا وقتاً قصيراً لملاقاتهم هناك رجل لرجل ، وإن لم نفعل فسوف يغيرون علينا في ديارنا .

ناحتْ أمي .. قالت يا ويلنا من لقائهم .. أين حامي ديارنا .. أين أنت الآن يا بشير الخير ؟ ارتبك الحشد ، واضطربت الجموع .. تراجعتْ النساء والعجائز .. صاحتْ صفوانة : " على الغلمان أن يتقدموا لملاقاتهم عند الجبل " .

في هذه الأثناء اندفعتْ بدور متسللة من وكر أبيها .. رأيتها تندفع تجاه الجبل بقوة ، توكأتُ في إثرها ، وراء الغلمان الذين حملوا عُدَّتهم وعتادهم ، آخذين نفس الاتجاه المؤدي لجبل الوادي . كيف تصعد بدور الجبل وحدها أثناء النزال ، وماذا أرادتْ من وراء هذه الفعلة ؟

في الوراء دوَّي نحيب زهيرة على ابنتها ، وحمل فياض عصاً غليظة وجري .. لم أستطع صعود الجبل .. لعنتُ قدميَّ .. لعنتُ العجز .. حاولتُ بالكاد أن أصعد ما يحتاج لوثبة واحدة من غلام جريء ، فشلتُ .. اختلَّتْ قواي .. سقطتُ على الأرض باكياً . رأيت يداً تهدهدني .. كانت أمي تبكي لأجلي ، وإلي جوارها شويح ؛ حيث أوقفاني ، فيما كنت أنظر للوراء ، نحو الجبل ، عائداً إلي الديار ، مردداً اسم بدور .

جرَتْ البنتُ تجاه الجبل مع الغلمان يا عم شويح .. أخشى أن يمسها سوء .. إنني فشلتُ في صعود الجبل معهم . احتواني الرجل بين ضلوعه .. أمر أمي بالعودة مع العجائز والتزام الدار ، فيما رافقتُه إلي وكره ، انتظاراً لما سوف يسفر عنه النزال .

* * *

-16-

بدا وجه (الراوي) مصبوغاً بسرٍ عظيم .. تنبَّهْتُ لذلك ، وهو يضع الوعاء على الجمر ، قلت إن الغلمان لن يقدروا على الأشراف يا عم شويح ، وبدور ستضيع في المنتصف . راعتني حدَّةُ الراوي ؛ بعد أن تقنَّعَ بقسوة مصطنعة .. صرخ في وجهي بأن أدع بدور وشأنها ، وأمرني أن

أهتم بحالي . في هذه اللحظات رأيته ملوِّحاً بسيرة البشير .. مؤكداً أنه ما انطفأ نجمه في الوادي إلا على يد نرجس ابنة صفوانة .

أقسمتُ له أن البشير سيعود قريباً من بطن المالح .. يوقد المشاعل من جديد .. هكذا حدثني المالح ، كما كان يحدث الزين من قبل .. التفتَ شويح بملامح أخري غير التي اعتدتها .. لم أنطق ، فقط اكتفيتُ بالنظر إليه مأخوذاً بدهشة آسرة ، وعلى وجهي ، بدتْ لمحة من ضياع ، ومسحة من فجيعة . قال الراوي مسترسلاً :
" إن بدور في حمي الشريف (ولي الدين)، ولن يمسها منه سوء " .
" ماذا تعني يا عم شويح ؟"
عشقتْ البنت شريف (بني حميد)، وهي الحقيقة التي لا مفر منها .
كيف يحدث هذا ، ولم عشقته ؟
ولمَ لا تعشقه ! ..

ما من دار من ديار العشائر ، إلا وتتحدث عما يتصف به من صفات الفرسان والنبلاء .. لقد رسمتْ له البنت في مخيلتها وجه البشير نعمان تماماً، أو ذلك الفارس المغوار ، الذي ينازل التنين ، ويقتله بزُجِّ حربته المسلولة ، من فوق فرسه الأشهب .. هكذا رَغبَتْ البنتُ عن أعرافنا يا بكر . إن الماضي يعيد نفسه ؛ حين عشقتْ الكرمية غلام بني حميد ، وهربا معاً نحو المجهول ، في ليلةٍ من ليالي المالح الزاجرة . منذ ذلك الحين أعلنتْ العجائز الوشم لفتيات الكرمة ، موثقاً لعصمتهن من النشوز خارج أعراف القبيلة .

أغرقتني دوامة ما سمعتُ من الراوي .. أجفلتُ قليلاً .. كل ما بي يبكي بغير دمع .. يتقهقر .. يرتج بعنف .. يتباعد مثل ملامح أبي في ذاكرتي .. أحبك يا بدور .. أحبك قدر كرهي للعجز وقلة الحيلة والهوان ..
استطلع شويح النار في الخارج .. راعته رؤية رجلٍ بدينٍ، يتخفى بشالٍ أبيض ، يتفقد النزال من بعيد ، وعلي مقربة منه وقف رجل آخر ، بدا عليه أنه مُسن ، ولكن حركاته صبيانية سريعة ، تنم عن منشأ حصين . تأمل الرجل الأول ، فأيقن أنه غريب عن الديار ، لكن هيئته ليست غريبة .. عرفه ، قال هو بشحمة ولحمه وجبلته (سعدون الموالدي) ! بهذا تحرَّك لسان (الراوي) .. نعم هو الموالدي .. أعرفه تماماً، أي ريح أتت به ومَنْ معه الليلة ، أثناء نزال الكرمة وبني حميد ؟
استرعي انتباه الراوي رؤية الغلمان ، وقد عادوا في طريقهم إلي الديار منكسي الرؤوس .. ولشد ما استرعاه ، أن يري فواز ، وقد أخذ يندبُ ويصرخ في الحشود العائدة ، بأن شفعة بدور للكرمة أسوأ من الهزيمة أمام الأشراف ، بعد أن أشفق شريفهم على ضعفنا وقلة حيلتنا .. تماماً كإشفاقه على الولايا والأرامل والأيتام .
* * *

-17-

انطفأت نيران الكرمة ومواقدها .. أُغلقَت الديار كلها .. أخرستْ الأفواه وخارتْ القوي .. بطئتْ الحركة في الداخل والخارج .. تَوكأتُ برفقة شويح ، إلي وكر أمي .. ناديت عليها .. بحثتُ عنها فلم أجدها بالداخل . راح شويح يترقب الطريق .. يدق على كل ديار الكرمة وأوكارها .. يسأل العجائز .. يقتفي أثرها .

خرج الغلمان ليلة بعد ليلة ، لتقصي أثرها ، أوقدوا المشاعل وصعدوا الجبل ، مسحوا الطريق إلي البئر . لم يعثروا عليها . أشاعت العجائز بأنها وطئت المالح لحالها أثناء النزال ، فيما أكدت صفوانة بأن ضاحية كانت تبكي بشدة ، وقد اعتادتْ الخلاء في أوقات ضيقها ، ولما دعتها للبقاء بوكر العجائز لحين انتهاء النزال ، رفضت باقتضاب وكأن في حلقها غصةً وأسي ، فتتبعتها حتي تلاشت في طريقها للبحر .

أكدتْ أخريات بأنهن رأينها عند البئر ، كانت تنظر في مائه ، وتتحدَّثُ إلي نفسها ، وقد اقتربن منها يسألنَ عما بها فلم ترد . كانت على غير عادتها ، منكوشة الشعر غريبة المنظر ، ولم يكن على رأسها عصابة أو رابطة رأس ، كما عاهدوها منذ زمن بعيدٍ . زحفتْ رابحة العجوز .. نظرت في عيني .. قالت :

- " يا ابن الزين .. ابحث عن ضاحية حيث رحل ولدي " .

انتفض العم فياض من جلسته .. حمل على عاتقه أمر البحث عنها .. لم يلقْ حماسه تأييد امرأته زهيرة ، بعد أن جال بخاطرها كيد فواز وملاعين البراري خلف الجبل .. توسلتُ إليه أن أرافقه ، قال إن الطريق إلي البراري وعرة وأني لن أستطيع صعود الجبل .

جذبتني بدور إليها .. بكيتُ بعنف .. فرغ النفع مني يا ابنة عم ، ولم أستطع البحث عن أمي .. فيما هدهدتني زهيرة ، قالت :

" إن الرجال والفتيان سوف يبذلون قصارى جهدهم في البحث عنها " .

نظرتْ بدور في عيني .. تواريتُ منها .. قالت لي بأن الرجال لا يبكون .. قلتُ لقد بكي ابن سالم المُعلم ، وابن نعمان البشيرُ، وشويح الراوي .. فكيف لا يبكي بكر ابن الزين الجساس ، أليس البكاء تطهيراً للنفس يا عذراء القمر .

وما ذنبك أنت يا بكر ؟!

ذنبي أني لم أشف بعد من حياة باتت بلا قيمة بدونهم .

الحياة عطاء يتجدد وتضحيات عظيمة .

مات أبي وضاعت أمي ، وكانا كل ما لي في الحياة ، وراح البشير وكان كل ما تبقي من أمل ، وأصبحتُ عاجزاً في قلي وبدني .
العجز هو أن يسيطر علينا الشعور به .
وماذا بوسعي أن أفعل ، بعد أن فرغ النفع مني يا بدور ؟
ابحث عنك في ذاتك يا بكر .
لن أجد إلا أطلالاً أو أسمالاً بالية ..
بل ستجد نفسك كما تريد أن تجدها .. لأنك فقط الذي باستطاعته جس المالح ، دون غيرك ، فأين محل العجز فيك يا ابن عم .
في قلبي يا ابنة عم .

هكذا فهمتْ بدور ما أعانيه من أرقٍ ولوعة .. وما أشعر به من ضياع ، لاختفاء أمي وغياب البشير ؛ الذي استرفد في عروقي محبته . كان قد أوصاه الزين علينا ؛ وهو يودِّع المالح بنظرة أخيرة مشبعة بالرضا ، قالها :
" الآن أموت وكلي رضاء ، يا بشير لا تغرب عينك عن ضاحية وبكر ما دمتَ حياً " .
عقبت ضاحية ، قالت :
" كان بالأولي أن توصي فياض ابن أمك يا رجل " .

نطق الزين آخر كلماته ، وهو مستلق على ظهر القارب وقد تشبثتْ عينه بالمالح ، مفتوحة شاخصة : " الخلافة للأصلح يا أمَّ بكر " .. فأين ضاحية ، وأين البشير ، وأين ابن سالم ، وأين الزين الجساس ، وأين أنا يا بدور .. رحم الله الجميع .
* * *

-18-
كان فواز قد دبَّر للخلاص من البشير ، بعد أن اتسعتْ خطوات الآخر يوماً بعد يوم داخل الكرمة ، وبدأ صيته يذيعُ في نواصيها ، خاصة بعد الذي كان من إقصائه للملاعين ، وتعقبهم حتى آخر حدود الوادي ؛ وبعد أن ابتني بناية عالية توسَّطَتْ الكرمة ، أسماها (دار الحكمة) .. كان يَرِدُ إليها من كل العشائر ، وقد وقع ابن سالم المُعلم منها موقعاً فريداً، كأحد أبرز رموز الكرمة وخارجها ، يحاكيه رفاعي ، وشريف بني حميد ، وبعض من شيوخ العشائر المجاورة .

أما البشير نفسه ، فقد عمد في سعيه إلي أن يُقَوِّمَ المعْوج في وادي إكباش براً وبحراً، فيما تولي شويح الراوي شؤون الكرمة الخارجية ، ساعياً لعقد جلسات، لأجل صلح الكرمة وبني حميد ، وتصفيه الأجواء وتقريب وجهات النظر بين العشيرتين ؛ وفيما من شأنه البت في مدي صلاحيات المصاهرة والزواج بينهما ، والقضاء على النزاعات القبلية التي تحكمها

العلاقات المشبوبة بالرغبة في الدم والإراقة ، والانفراد بموارد المالح ، والسيطرة على بئر الماء العذب .
الآن يا رجالات الكرمة نعيد أمجاد هذه البقعة الفريدة ، من بقاع الأرض ، ولا يتخاذل منكم أحد فيما أوكل إليه من عمل ، لأجل صلاح النفوس ، وإصلاح الحياة . عندئذٍ انتفض قلب البشير لطيف نرجس الذي هبط لحينه .
* * *

-19-
كنا في (دار الحكمة) أكثر إحساساً بما يصيب قلب البشير ؛ فنقرأ على صفحة وجهه سطوراً، لم يجفْ قلبه من حبرها بعد .. نرجس .. نعم هي .. البنت الخمرية الهيفاء التي أصابته ، فاستعمرتْ ساحاتِ قلبه ، وحرَّكَتْ ارتعاشات روحه ، وملكت خلجات نفسه ، وبات غريقاً في قاع بئرها المظلم ، كبطن المالح الملغزة . قرر في نفسه معاودة طلبها من أبيها .. أدرك أن الماضي بات منحسراً بكل عادات العشائر ، وأعرافها ، وقوانين البوادي الجائرة ، وكذلك بدأت البنت تتخلص من ثرثرة أمها ؛ هذه المرأة التي تشبه الرجل غليظ الملامح لحدٍ بعيد ، والتي اقتحمتْ كل الديار ، واطلعتْ على أرحام نسائها وعذراواتها في المخاض ، أو الختان ، أو الوشم .. بعد بلوغهن الحيض ؛ لكيلا يخرجن إلي غريبٍ من أي عشيرة أخري .

ربما ظل الوشم لوقتٍ قريبٍ هو الحائل دون قبول صفوانة طلب البشير لخطبة ابنتها بدعوى أنه غريب عن الديار .. وأن بقاءه في الوادي مرهون بفترة تكليف الخفراء ، وإذا طال فإنه لن يفلتْ من يد فواز وملاعين الجبل ، الذين باتوا يتربصون له في البر والبحر .

أخيراً تحدثتْ نرجس بلسان حالها ، بعيداً عن محيط أمها ، قالت :
" ما رأيت أعجب من البشير هذا .. استطاع بالقليل أن يهزم خوفنا من الملاعين ، وأقام المُصلَّي ، ودار الحكمة ، فيما أعاد ترتيب البيت من الداخل .. من أجل ذلك لابد أن تظل الكرمة مدينة له بالكثير" ..
هكذا أخبرتْ نرجس البحر في سكناتها إليه .. فيما لعبت الظنون والهواجس في صدر أمها ، وهي تتأمل تبدِّل أحوال ابنتها تجاه البشير ، كأنها أحسَّتْ بشيءٍ، تمنتْ أن يخيبَ ظنُّها فيه .

وعلى مقربة من الدار التي بناها البشير ، راحت نرجس مع الفتيات اللائى يملأن الجرار بماء البئر ؛ تتكشف الوجوه البعيدة بطرفة عين ، علها تري ما خرجتْ من أجله في ذلك البكور الجديد ، غير أنها لم تره . شغلها ما سمعته من بنات الوادي عند البئر ، من عزم البشير معاودة طلبها من أبيها .. لكم تمنتْ العذراواتُ أن يكنْ لهنَّ مثلما لنرجسَ من حظٍ،

ليأخذهن البشير على جناحه القوي مجاوزاً بهن ظلام الحياة القبلية ، إلي أرض غير رملية ، وسماءٍ بلا غيوم ، وهواء غير الذي يتشبَّع بسواري البحر ورياحه المالحة .

هل حقاً يجدد البشير طلبها ، أو من أجل عيونها الزرقاء تقلَّد رفاعي الصياد مكانةً مرموقةً في دار الحكمة ، فلُقِبَ من وقتها بالشيخ رفاعي ، حيث وضعه البشير على رأس نفرٍ من الرجال الذين يشاورهم في الأمور التي تتصل بمصالح وشؤون الكرمة ، وقد أطلق على هذا المجلس (مجلس الحكماء)، بديلاً عن مجلس العجائز ، الذي لا يحل ولا يربط . ربما دار ذلك في أعماق نرجس .. فيما تداولته الفتيات عند البئر . طفح على صفحة وجهها حرجٌ شديدٌ لتكرار طلب البشير لها ، وهو من هو في الوادي وخارجه . كيف ظل قلبها ميتاً طيلة السنوات التي قضاها في الوادي ، بين دار الزين ، والبحر ، وبطن المالح ، وجبل الوادي .
* * *

-20-
كانت امرأة فواز قد اقتحمت دار الحكمة ، بلباسها الأسود المحلي بالترتر والشخاليل ، وقد فاح منها عطر استرواح بليدٍ . بادرها شويح بطلبه أسباب زيارتها غير المعتادة للمجلس ، ففحَّتْ بفحيح رقطاء خائنة .. قالت :
" إنكم تجتمعون وتفترقون ، ولا شيء داخل الديار يتغيَّر إلا من سيِّئ إلي أسوأ " .

اتجهتْ بجبلَّتها إلي الركن الذي يجلس فيه البشير منعزلاً، كأنه الغائب الحاضر في الدار . نظر باحتشاد إلي جرأة المرأة التي اقتحمتْ المجلس بهذا الحضور السافر ، وتحدثتْ بلهجة حضرية لا تنتمي للهجة أبناء البوادي ، وبتهكم أثار حفيظة البشير ؛ الذي استغرق في صمته وهو يتأملها ؛ فيما استطردتْ بلكنةٍ مستفزَّة ، بأنه أبداً لم يحدث ما يدعو للضيق والملل ، فالأمور تسير جميلة ، والبطون مملوءة ، والديار عامرة بالخير والأمان .

نهض ابن سالم ؛ مستنفراً من حديثها في حضرة حكماء العشائر .. أمرها بالتزام الأدب في حضرة الكبراء . تَسَمَّعَتْ الغجرية كلام المعلم ، وهي تضع يدها في خصرها ، وتقف في مواجهة البشير .. كأنما أرادتْ أن تستدرجه بمكر الغوازي .. سألها البشير بهدوءٍ عما وراءها .. كان لصوته حضور وهيْبة يطمران المكان ، ويدعوان للالتزام والدعة .

أحسَّتْ رباح بضرورة ارتدائها كياسة مصطنعة في حضرة هذا الرجل . قالت بخنوع ومسكنة بأن زوجها لم يعد لها ، والنساء في الوادي لا يطقن بقاءها بينهن ، ويكدن لها ويعايرنها لأصلها الغجري ، ويفصلون عيالها عن باقي عيال العشائر ، ويقذفونهم بالحجارة إذا أرادوا الاختلاط بهم .. فماذا تبقي لها يستحق أن تتحمَّل من أجله الخوف والفقر والسخرية من ساكني الأوكار .

تململ ابن نعمان في جلسته ، وهو شاخص ببصره إلي المرأة ، التي تلوَّنتْ كأمهر حرباء . سألها عن حاجتها ، فطلبتْ أن يكفل المجلس لها ولعيالها الحماية والأمن .. وأن يحكم لزوجها بالرجوع إلي الكرمة .. وأن يلتزم المجلس ببناء دارٍ لها وزوجها وعيالها ، يعيشون فيه بالقرب من ديار العشائر ، على أن يصير لفواز قارباً، يطأ به المالح مثل كل الرجال .

انتحي شويح بالبشير جانباً، محذراً إياه من هذه الحرباء الملونة وزوجها العربيد بعد أن أهدر مورد المالح ، إسرافاً في مساطل الحضر .. هكذا تيقَّنَ الراوي شويح بنفسه عندما زار (الدراويش) .. وهناك التقي (دردوش) ذلك الرجل النحيف قصير القامة ، صاحب الماخور الذي امتص مورد المالح ، وعرف منه كل شيء نظير القليل من العطايا ، وهناك يجتمع فواز مع السماسرة وتجار الحضر .

وبمكر الغوازي ، استطاعت الغجرية قراءة باطن الحوار الخفيض ؛ الذي دار بين الراوي والبشير ، وبعد أن أحسَّتْ بالحصار الذي سوف يُحْكَمُ حول رقبتها ، والذي جعلها تبتلع من ريقها ، وتفكر في مخرجٍ جديد يتفق مع قراءتها لوقائع الجلسة . وعلى عكس الدرب الذي سارت عليه ، مستهلة أحاديث مكرها ، راحت ترتدي حُلة جديدة من حُلل المراوغة ، حيث فجَّرتْ بإعلان طلبها من المجلس تطليقها من زوجها ؛ مفاجأة اهتزَّتْ لها قاعة الدار ، ذكرتْ في دعواها بأن زوجها قد حامتْ حوله الشبهاتُ في الكرمة ، وبات طريداً من البحر والديار .

أدرك البشيرُ بفطنته أن الأمر محض خدعة من فواز ، وأن الغجرية ما اقتحمتْ المكان إلا بأمره ؛ ابتزازاً مغلَّفاً بحيلة امرأة باهرة في استرحام القلوب . نهض واقفاً بصلابة .. اتجه إليها بصمتٍ وثباتٍ .. وبنبرة حادة أمرها بالعودة لزوجها .. فيما أثقلها شفاهةً برسالة لفواز تخبره فيها ، بأن سماء الكرمة لن تظله ؛ طالما بقي البشير نعمان حياً، وأنه لا مكان بين رجالات الوادي لخائن ، وأن الكرمة علمتْ منذ أمد، بأنه لا يزال يكيد ويدبر ، ويعد ملاعينَ جدداً ؛ للقضاء على البشير ، وهدم ما صار عالياً خفاقاً بين أرض وسماء الوادي .

* * *

-21-

قالت العجائز لامرأة عمي : لا حاجة للكرمة بشفعة ابنتك بدور لدي ولي الدين ؛ وأن غلماننا قادرون علي تحمُّل مسؤولية الكرمة وشؤونها من غير مذلة أو شفقة من أحد . صرختُ فيهن ، قلت :

" أيتها العجائز ماذا تخبئن في أعناق أرحامكن التي ضمرتْ، وبان قرارها . ليس علينا غير العدول عن رأيكن في معاداة (بني حميد) . إنهم موالون للمستنصر منا والضعيف .. وما هو

أسوأ من السيئ أن ننخدع فيما ردده الأوائل ، ونركن إلي الظن بأنا أصحاب قوة ومراس وبأس " .

تبدَّل حالُ العجائز ، توكأتُ ناحية وكر عمي فياض ، إلي حيث بدور . ظن العم أن مجيئي محفوفٌ بإهالة اللَّوم على البنت ، بعد الذي بَدَرَ منها في نزال بني حميد . بادرني متخاذلاً ؛ بأن ما فعلته بدور كان خطأ كبيراً في حق كبراء الكرمة . نظرتُ إليها في ركن مظلمٍ داخل الوكر ، رأيتها مكبلةً بالحبال ، وقد جلستْ زهيرة على رأسها ، تغرس في مسامعها كل ما تكره من توبيخ وإهانة .

صرختُ فيها .. قلت يا عم ، ما جئتُ مستأسداً، ولا رافعاً مُديتي على رقبة البنتُ .. ولا أتيتُ معزياً كبراءنا في تمرُّغِ لِحَاهُم بترابِ العشائر يا امرأة عم .. لكني جئتُ أنبئكما بثقل مسئولية غلمان الكرمة في التصدي لهلاك أكيد بعد أن أصروا على الإبحار رغم عناد البحر ، وخرجوا على متن قارب شراعي في رحلة صبيانية متهورة ، وغير محسوبة العواقب .. حذرتهم بألا يبحروا ، بعد أن حاكيت أبي في جسِّه للبحر في هذا اليوم العاصي ، وصموني بالجهل وأشهروا في وجهي العجز والعكاكيز ، كانت وجوههم تتحدي المالح ، في استنكار واستبشاع لشفعة بدور لدي الأشراف .
* * *

-22-
الآن يتهاوى الجبل ثانيةً ؛ ولا البشير ، ولا الزين الجساس ، ولا ابن سالم المُعلِّم ، ولا ضاحية .. لا غير قدرتنا الآن على أن نحطم عجزنا ونهزم أحزاننا ، وما فعلته بدور عن نفسها ، لهو الخير والصواب لحقن دماء أبناء الوادي وعشائره ، ذلك ما أقره الكبراء الذين غربت شموسهم عن الوادي ، فما أحوجنا إليهم الآن يا عم . تنفَّسَتْ بدور الصعداء .. علمتُ أن العجائز تدبِّرْنَ أمر الإجهاز عليها ، بالوشم ، وأنت وزوجك ليس باستطاعتكما غير الخضوع لحكمهن في البنت ، وهو ما لا طائل لكما به ؛ غير الحسرة والندامة .

بكت بدور .. توكَّأتُ على عكاكيزي .. انهرتُ إلي جوارها أفك قيدها ، وأبكي معها كل ما راح يتساقط من عمرنا . قالت :
" إن الكرمة ما تركتْ في عِزِّها ورخائها مثقالَ حبةٍ من عطفٍ في قلب شريف من أشراف بني حميد .. سرقوا حصيدهم ، وقطعوا عليهم الطريق إلي البئر ، وأهالوا عليهم بحجارة من محاريب الجبل ، حتى فكوا أوتاد خيامهم ، وشدوا الرحال بأمتعتهم وأنعامهم وأطفالهم وذويهم ؛ إلي حيث أمرهم شريفهم بنصب الخيام ، بالقرب من بلدٍ فقير تفصلنا عنهم صحراء بادية ، وصارت الكرمة إلي ما صارت إليه . أما الآن فقد تبدَّلَتْ المواقع يا بكر ، بعد أن أنجبتْ عشيرة بني حميد أشرافاً ينقرون الأرض ، ويضعون الغرس ، ويرعون الأنعام ويُؤون

ضعافهم .. ويلوحون أمام أعيننا بالقصاص والثأر .. الثأر والدم والضياع ؛ هم كل ما ورثناه عن أجدادنا . أما الكرمة ؛ فقد أسرفتْ إسرافاً .. بما نَعمَتْ به البُطون ، وتخايلتْ له الرقاب ، حتى حل عليها ما حل ، ونزل بها ما يهدد قوتها ، وينفي سطوتها ، ويعفر لحي كبرائها ؛ من غضب السماء .. ندرة في الماء والمورد والولد ، ولم تعد تلد النساء سوي الإناث ، وسرق المالح خيرة غلماننا ، في رحلات الصيد ، والبحث عن كنز أجدادنا المزعوم .

الخير ما فعلتِ يا بدور .. الآن يملأ صياح ابن الزين الجساس أرجاء الوادي .. لم يعد باستطاعتي أنَ أتحرَّك من دون هذه العكاكيز ، التي بت أكره معها الحياة .. الآن فقط أنظر وأتكلم .. أراقب المالح .. أنا الجساس الصغير يا عم .. أنا امتداد الزين ، وخليفة البشير ، وظل ضاحية ، وتلميذ ابن سالم المُعلم ، ومريد الراوي شويح . أنا كل هؤلاء الأخيار ، فأنصتْ مثلي ، لعلك تستطيع أن تجسَّ المالح ، أن تتوسَّل به لدي أعراف البوادي وجُهَّالها ؛ بأن يكفُّوا أذاهم عن بدور . قالها فياض بعين منكسرة :
" أسلمتُ أمر ابنتي للسماء ، وليجرِ عليها ما هو مكتوب ؛ من أمر هو كائن لا محالة .. يا بكر ، يا ابن الزين الجساس .. امضِ إلي حال سبيلك ، ولا تُبْدِ ما في نفسك أمام الغلمان ؛ لئلا تكون فتنة ، ويكون أمر الكرمة في يد بني حميد .. عندئذٍ لن يُقام لنا مقام بين العشائر كلها " .
* * *

-23-

نادي منادٍ من فوق الجبل ، بأن الهلاك قد أدرك الغلمان الذين أبحروا .. واجتذب البحرُ مرَاسَ الكرمة ، وبأسها على أشراف بني حميد ، هذا ما دلت عليه الأسمال التي رمي الموج بها على الساحل .
أخرستْ العجائز صوتَ المنادي . قالت إحداهن بأن غلماننا أشد بأساً، وأقدر على مواجهة المالح ، فيما تسلَّلَتْ (زهيرة) إلي الداخل ، تحمل في صدرها فسحةً من ألم ، يتخلله فرح عظيم ، لتخلف زوجها عن موكب الراحلين .
صاحت بدور :
الآن يثأر البحر لكم يا أشراف بني حميد .. إن حزني عظيم علي غلماننا الذين ابتلعهم المالح ، لكنه العدل .. تذهب ريحُ عتاة الكرمة ، قبل أن ينصرفوا إلي ما عقدوا العزم عليه ؛ من تدبير جديد لمطاردة الأشراف ، وتعطيش أنعامهم ، وتشتيت شملهم " .
قال (فياض) :
إني مازلت أشحذ لساني لرد كيد العجائز ، فيما يجول برأس صفوانة ؛ في أن تَهِبَ الكرمةُ للمالحِ، قرباناً لتعود القوارب ، ويَسْلَمَ الغلمان .

هكذا كما فعل الأولون ، فيما كان في الماضي ، وتناقلته الألسن عن ظهر قلب ، فجال به الراوي بين عشائر الوادي .. يحمل ربابته مجالساً الغلمان تحت سفح جبل الوادي ، مردداً :
(ارم ف بطن المالح نظرة
تجس الموج العاشق بنت بنوت
لجل يموت الموت ويبقي البدر ونيس
والبحر عريس .. مزفوف علي قمرة شوق
بتحلب من ضرتها حليب الموج
مجبِّل ومبحِّر بشراع ملاَّح ،
مغوَّط في القاع ؛ وطالع مع أول طرح
يهز الصبح على استحياء ..
فيجود بالخير) .

إن بدور اختمرتْ .. تبدَّل حالها .. انطبع البدر على وجهها فانجذبتْ ؛ تستشعر أنوثتها .. وتتفتح مسامها لخوض أكيد ، وإني أخشى أن تعمُرُها فتنةُ القوم ، بعدما انتفخ صدرها ، وتراسل شعرها ، وتراقص قوامها ؛ دون أن توشم بوشم القبيلة يا فياض . قال : " الآن تقع البنت تحت طائلة أعراف الكرمة ؛ فلا تحل لغير غلماننا ، ولا توثق إلا بوثاق فتيات الكرمة ، بعد أن يتغير مِزاجُهن ، أرقاً وسهداً في الليالي القمرية الساهرة .. ستأتي صفوانة قبل محاق هذا البدرِ يا زهيرة " .
تقلَّبتْ البنتُ على جمرها ، صرختْ في وجه أمها :
لا حاجة لي إلي الوشم يا أم .
لطمتها (زهيرة) بدعوى أن الوشم سترة للكرميات . تراختْ قوى بدور .. كشفتْ ما في قريحتها .. قالت بأنه ليس في الكرمة من يتفتَّح له قلبها .

انفلتتْ حسراتُ فياض . قال :
الآن تجنحُ ابنتك إلي خيبتِنا يا زهيرة ، وذلِّنَا وسط العشائر .
لسنا بإمرتها يا رجل .. عليك باصطحاب العجوز أولاً، ولا رأي للبنت .
هكذا قالت امرأة عمي ، فيما استرحمتْ بدور وجه القمر .. سيتفرَّق وسط الضباب الأسود ، وتتكحل عيناها بمراود البكاء طويلاً . قالها العم ، بما أثار في دخيلتي ، وجعل دقات قلبي تدب بعنفٍ، انتظاراً لردة فعل بدور :
ستقرع طبول الكرمة ، وتزفين إلي بكر الزين ولد عمك .

أثار كلامُ العم (فياض) امرأتَهُ، التي بَرِقَتْ عيناها ، قالت :
كان ذلك قبل أن تتبدل الأحوال ، بإشارة منها إلي عكاكيزي .

كفكفتْ بدور دمعها .. قالت كلماتها الدافئة في حضرتي .. بأنني أنزل في نفسها منازل أكثر قداسة ، من أن أصير لها زوجاً، بإمرة الأعراف والتقاليد :
" إن دمه من دمى ، وروحه من روحي ؛ بكر الزين .. له في نفسي منزلة أخٍ، لم تلده أمي " .

هكذا فهمتُ إشارة كلامها ، فيما ظهر الضيق على فياض منصرفاً عن الجلسة .. قالت زهيرة مخاطبة ابنتها :
سيوكل أمرك إلي وكر العجائز ، حتى يبدين الرأي فيمن يصلح لك من الغلمان ، ودون أن يكون لابن ضاحية بلوغ هذا المراد منك .
نظرتُ في عين بدور ، بمشاعرٍ من اليُتَم ، ولسان حالنا يناجي حاجتنا للبشير .
* * *

-24-
تقصيتُ الخبر ، فتهلل وجه شويح ، ببشري ما أسفر عنه مجلس العجائز ، بأن الجلسة قد حكمتْ لي بالزواج من بدور ، وهو ما لا تملك البنت مخالفته . قال الراوي شويح بأنها بغيتي ومرادي ، وأملي في الحياة ، كل أحلامي في الليالي الطوال ؛ حبي الذي من أجله فقدتُ ساقي بحثاً عنه في المالح . تذكرتُ كلامها في وكر أبيها .. نظرتُ متأملاً سوارَ أمي حول معصمي .

بادرني شويح ، متمنياً لو كان لضاحية نصيب من هذه الفرحة ؛ التي ظنَّ أن قلبي سوف يتراقص لها الآن . اهتزَّتْ رأسي أسفاً، فيما تجاهل الراوي ما في وجهي من عبوس .
استرسل قائلاً :
إن الزين منذ عودته من الحضر ، أقام في وكرٍ منعزلٍ عن أوكار الكرمة .. بعد أن خابتْ مساعي فياض في اجتذابه ، لينصب وكره إلي جوار أوكار الكرمة مرة أخري .

ولما أشاعتْ العجائز عنه ما أشاعتْ، من أمر انتفاء ذكورته ، وأوعز له ابن سالم بالزواج .. كانت المرة الوحيدة ، التي صعد فيها جبل الوادي ، على مرأى ومسمع من الناس . راح يخلع ملابسه قطعة بعد أخري ، مطيحاً بها من فوقه ، حتى صار عارياً إلا من ستر عورته . ولما تراجعتْ العذراوات إلي ديارهن ، وطوت العجائز ألسنتهن في الأفواه ؛ علمتْ العشائر كلها ، حكمة ما بدر عنه ، حيث أعلن صراحةً الزواج ، ممن ستبادر بجمع ملابسه المنتثرة فوق رمال الوادي . كان في ذلك إشارة بأنه ليس من بين نساء الكرمة ، من تستطيع ستر عورة رجل ، حتى يأتمنها على كل ما هو غالٍ وثمين .

ولما تقدمتْ ضاحية بمفردها ؛ استجابة لأمر أبيها الطريح .. راحتْ تلم الملابس قطعة بعد أخري ، غير عابئة بتعنيف العجائز ، ورجمها بالحصى والتراب . ولما أتمَّتْ ذلك ، كان القربى

بينهما ، والزواج في معزل عن الشائعات التي رددتها زهيرة ، ودون مراعاةِ (فياض) ؛ أخ الزين .

ترك الزين بعدها شؤون الكرمة ، غير أنه استأنف صناعة القوارب ، وفوَّض ضاحية بالمقايضة على ذلك بعد أن مات أبوها ، وفرغتْ هي لشؤون زوجها . أما الآن فقد دارت الدوائر ، وحكمتْ العجائز لك بالزواج من بدور التي تعشقها ، دون أن تقوم مقام أبيك في البحث عمن تصلح لك من الفتيات .

كان الراوي يعلم أن كلامه ، ما هو إلا محاولة يائسة لتبدل حالي ؛ الذي وصفه بأنه قد تراجع ، وساء مع تباعد الأمل في عودة البشير ، أو اكتشاف أي خيط للعثور على أمي .. لكنها الفرصة قد سنحتْ لي ، وعلىَّ أن أُحسن استغلالها . كان ذلك ما كشفت عنه نظرات الراوي . تهدج صوتي شحيحاً واهناً، قلت هل أُكْرِه بدور على الزواج مني ، بإمرة العجائز .. إنها عشقتْ شريف بني حميد ، والعشق غالبٌ يا عم شويح . سلني أنا عنه .
أعافيكِ ونفسي يا بدور من حماقة العجائز ، وصفاقة أفعالهن ، قال الراوي :
سيعلنَ أمر زواجكما على الكرمة كلها مع (الثريا) الجديدة للقمر ، عسي أن يعود الغلمان من بطن المالح ظافرين بالمورد والقوت .. أو تنشق الموجات السوداء عن ابن نعمان البشير .. وتعزف الأراغيل حول الدفأت ، وعندئذٍ تزدهي الكرمة كلها ، بثوب جديد ، يرفُّ وسط رياحين ونسائم المالح .
* * *

-25-
تمر الأيام سريعة قابضة ، وأنا أتأمل ضمور ساقي ، وتصدع الجبل ، وجفاف البئر ، ووعورة المالح ، واختفاء المحبين ، ببلاهة وارتياب ، وخوف ورجاء .. أصيح بأعلى صوتي دون أن يسمعني أحد :
" سترون ماذا يحمل إليكم بحرٌ بلا فيوض ، وأشرعة آوت لمراسيها المدودة بطول أعماركم ؛ يا غلمان الكرمة وعجائزها . سَتُسَمُّون أنفسكُم بأسماء جديدة ، تأوون فيما لا يزيد عن أكواخكم المذمومة ؛ هنا حول البئر القديم ؛ سوف تتضح أشباه الصبية ، من حاملي الوجوه القبلية ، ورافعي القوس والنبال ، مهدري الدم فوق محْل البوادي السحيقة ، وسوف تحيلون الكرمة إلي نبأٍ غير سار ؛ حين ترتحلون على متون أنعامكم لمستقرٍ ومستودع . حيث تتناثرُ خيامكم فوق تراب الوادي ؛ فتجهزُ العجوز علي جلودكم ، بالكي ليلة محاق القمر " .

يرتفع الصراخ فتأوي بدور إلي وكر أبيها ؛ بعد أن ألَمَّتْ بكل ما جري في وكر العجائز .. شجبها أبوها ، فارتمت في حضن أمها .. تبكي :

أبي .. أمي ، أجأر إليكما ، فاعصماني ، مما يحدث داخل الأوكار ، وما سوف يحل بوكرنا ؛ من كيد العجائز .. أنا عذراء البوادي .. هكذا خلعت عليَّ القبائل كلها .
دفعتها أمها :
إنها أعرافُنا .. توشمين ، كما توشم فتيات القبيلة كلها .. سينحلُّ المحاق سخطاً وغضباً على وكرنا إن لم يحدث ذلك .
صرختْ بدور بعزمها :
هذا ما أوعزت إليكم به صفوانة ، فإن كان لا محالة ، فالموت أقرب لي من الكي بالنار

هكذا أخمدتْ زهيرة نارها ، واسترفد فياض روافده في الليل ؛ يحتطب أعواداً وفروعاً من أشجارٍ قديمة ، تتناثر حول جبل الوادي ؛ الذي يبعد عن البئر ، بفاصلة شاسعة من أساطين النخل ، ومكامن الملاعين ، وفخاخ الذئبة ، وشقوق الثعابين .. يتغبَّطُ حمْلَهُ عائداً .. حتى إذا شارف الساحل .. نظر باتجاه بطن المالح شذراً ؛ بيقين انتفاء أثر القمرَ في المالح .

سرتْ في ريقه حنطة بدور ؛ وهي تمرِّغ لِحي كبرائها في تراب الوادي ، وتستنصرُ بني حميد لنصرة الكرمة .
* * *

-26-
قال الشريف لبدور ، بأن قبيلة بني حميد سوف تحمي كرمتنا من خطر لاحق ، ودون النظر إلي ما حملت أكفُّ الكرمةِ من بطش وإساءة وجحود لهم .. من أجل بدور وحدها يفيض نهر الأشراف بفيض من العطاء .. إنها فقط شفيعة لولاة أمرها ؛ وهو ما لم تقبله عجائز الكرمة ، ولا غلمانها .

الآن تتسع الديار لكم يا بدور .. نجتزئ القوت ، ونفلح الأرض ونقتسم الأنعام ، غير أني أشفق عليك يا عذراء القمر ، مما هو واقع بك بعد أن نزلتِ ديار بني حميد سراً . أظن غلمان الكرمة ، قد تركوا الخيام الآن ، وانتشروا حول سفح الجبَل ، يرمون بأعينهم في الأقاصي والفجاج البعيدة ؛ بحثاً عنكِ بالمشاعل ، وسوف تحيل العجائز الأمر إلي الإشانة والاستبشاع ، بعد أن عادت لَهن المقاليد مرة أخري ، بعد اختفاء البشير في عرض المالح .

أخبرتْ بدور الشريف ولي الدين ، بما جري على لساني ، بعد أن قمتُ بجسِّ المالح ، وكنتُ قد أقسمتُ لها بأن قارب الغلمان لن يعود ، قالتْ :
إن القوم قد بكروا بالقارب لأيامٍ في البحر ، ولم يتخلف منهم غير (بكر الزين) ؛ الذي جسَّ المالح ، فطالع ارتفاع الموج ، واشتداد العواصف ، والدوامات ، بعد أن تسمَّع طقطقة كلابات (أم الربيان)، ونعيق (الغرنار) الذي يستشعر الخطر قبل وقوعه ، وكذلك خشخشة (الأسبرط)،

وصرير (القادوح) العالي ، فلم يمتثل لرأيه أحد ؛ فيما حذَّر به القوم ، من أخطار تحيط بمغامرة خوض المالح في هذه الأيام ؛ مهيباً بهم ألا يركبوا البحر ، في محاولةٍ غير آمنة ، وسط دوامات ، وأنواء ، وعواصف ، وأحوالٍ أخري وشيكة .

كشف ولي الدين عن تخوُّفه مما يمكن أن تدبره الكرمة للبنت ، فيما ردَّده بأن العجائز يدينون للمالح بقربان ، لينعم عليهم بالخير الوفير ، وحتى يأمنوا غدره في رحلاتهم للصيد ، واكتشاف لغز منطقة بطن المالح بوادي إكباش . وبلسان الحال قبل المقال ، تحدث الشريف ، فارتدَّ صدي حاله بحالي ، فيما استشعر من الخطر ، الذي بات يهدد البنت ، من تدابيرهن ومكرهن لها في المجلس .. بعد أن أشركتْ بأعراف الكرمة ؛ وضربتْ عرض المالح ، بما استنَّتْهُ العجائز من تقاليد بالية .

تجلَّتْ (بدور) إلي وجه القمر بخاطرها ، دعته :
(أيها الشاهد الساهر ليلاً .. وحدك تدرك الخوافي ، ووحدك تغرق في أعماق المالح ، ووحدك تفتضح الظلمات .. فأين اختفتْ ضاحية ، و غاب البشير ، وأين مستقرهما في لياليك الطوال) .
* * *

-27-
رميتُ ببصري بعيداً، من خلال فتحاتٍ ضيقة داخل مكمن الراوي ، كأني أتوهم ذلك التكوين الإنساني بالغ الجرأة والحضور .. تلك الكتلة البشرية العتيدة . إنه هو يا شويح ، بشحمه ولحمه .. ابن نعمان البشير . خرج من بين رقائق الموجات ، التي تتراقص حول الدفات ، ينتظر أن تُزف عروس البحر بدور ، إلي بكر ابن الزين الجساس .

جثا الراوي راقداً على ركبتيه ، ناظراً بدمعة متلألئة ، نفذتْ حارة من بين جفنيه ، وفي اتجاه معاكس كان يتجاوب معي ، وأنا أحاكي البحر ، وأقص له أوجاعي التي لا تنقضي ، لكن شويح كان لا يزال يجدُ في ذكر اسم (سلطان ابن سالم)، ترطيباً لروحه ، التي تاقت لأنس الرجل الطيب ؛ الذي أهلكته صخور محاريب الجبل ؛ فترك المُصلي ، وارتقي للرحاب الأعلى .. آه .. كم أبْرَحْتَنَا فراقاً يا مُعلم الوادي ، وطويتَ خلفك نوافذَ الوفاء تماماً، كما فعل الزين والبشير .

هكذا رأيتُ وسمعتُ من الراوي ، ما أثار عطشاً دائماً للأخيار الذين ما تركوا بعدهم غير أفعوانات المالح التي تُعجزنا . أفاق من شروده مقترباً مني ، وما تزال الدمعة محتجزة بين جفنيه ، قال لشدَّ ما عانيتَ أنت فراقهم يا بكر ، أما الآن ، فإن الكرمة قد وضعتْ فيك رجاءها ، لإعادة فتح (دار الحكمة) التي أغلقها الملاعين .

هل يستطيع العاجز أن يرد الملاعين يا شويح . أوغل كلامي في نفس الراوي ، قال بأن عجزي ما كان إلا عجز البشير نعمان ، الذي تأبَّتْ عليه نرجس ، لكنه صار مضرباً لأمثال البوادي ، حين انصرف عن طلبها ، وقت أن بدأ قلبها في العدول عما كان قد أصابه من غشاوة وموات .

ظن أبوها أن البشير ، أراد التقرُّبَ منه والتودُّد إليه ، بجعله على رأس مجلس شيوخ الكرمة وحُكمائها في دار الحكمة ، من أجل عيون ابنته ؛ كما أذيع في الوادي . لكنه أعلنها صريحة مدوِّية على مسامع ومرائي الشيوخ ، في الدار وخارجها ، بأنه لا خير في وجهٍ بلا مسرَّة ، ولا حبٍ بلا ميزان . قالها :
" أيها الناس لا حاجة لي في ابنة الشيخ رفاعي ..
عَلَت الدهشةُ وجهي ؛ لعلمي بمقدار ما يحمل البشير في قلبه من وُدٍّ طاغٍ لنرجس . كذلك كانت عين الشيخ رفاعي في الأرض ، ولم يرفعها غير البشير نفسه ، حين صرخ فيه وسط الرجال بأن يرفع رأسه . قال :
" ما أحوجنا في أيامٍ كهذه للاعتداد والثبات والثقة ، ونحن نواجه أنفسنا ، ونسترد قوانا .. قوانا التي ضاعتْ بين المالح والجبل والملاعين " .

من يومها عرفتْ نرجس طريق البحر .. عرفتْ الخُلوة .. عرفتْ البشير .. باتَتْ تَعُدُّ النجوم أرقاً وسهداً، وتحاكي بدور في أحوالها ، فتزهد في مجلس أمهما ؛ التي باتت هي الأخرى تشكو سوء أحوال ابنتها ، وتراجع قواها ، وكسر نفسها ، وهزال جسدها .. فتصنع لها من التمائم والتعاويذ ، ما تظن أنه ينفع . قالها الراوي : " بأنني مثل البشير ، وبدور مثل نرجس ، عمل المالح في أترابنا ، شقوقاً مبرحة .. هكذا تصوغ البوادي عُشَّاقها ، فوق الرمال المعرجة بالعطش والجفاف .
* * *

-28-
سمعتُ صوتاً بالخارج .. قال شويح هو صوتٌ لا تخطؤه أذني يا بكر . تحرَّكَ شويح تجاه الخارج ، ألقي ببصره فرأي رجلاً، عرف أنه غريباً عن ديار الكرمة من خلال هيئته .. أخذتني رجفةٌ دبَّتْ في قلبي ؛ فنهضتُ متوكئاً على عكاكيزي . تحركتُ باتجاه القادم ، ومن ورائه الراوي ، الذي مَسَحَ الخارج بنظرةٍ حذرةٍ . قال الرجل وهو يجلس على أريكة فقيرة في ركن المكمن :
" أتيتك يا ابن الزين ، لعلمي برجاحة عقلك ، وبصيرة قلبك ؛ بعدما قضتْ العجائزُ أمراً في شأن بدور ، بزفافها إليك .

هكذا بادر الرجل بحديثه إليَّ . ثم كشف عن وجهه ، فكان الشريف ولي الدين . أسرع شويح نحو الخارج مرة أخري ، يتقصى المكان ، ثم أحكم غلق المكمن من الداخل ، ولشد ما كان الراوي يخشى عيون فواز ، التي لابد أنها مغروسة ، ومتربصة على هضاب وتلال جبل الوادي . قالها شريف بني حميد في وجهي ، فتمزَّق لها فؤادي :
- أشهدك أني أعشق بدور ، وهي تعشقني .. وإنه عشق خارج عن أعراف القبيلتين .. لكنه العشق ؛ وأنت أعلم به .. إنها بيني وبينك .. بين عاشقيها الحكيمين .. وقد أتيتك لنبرم معاً عهداً، من شأنه ألا تضيع البنت بسياط أحدنا ، ونحن أقدر من عجائزنا بفعل ما يرضي ضمائرنا .. إنها تُجلُّكَ إجلالاً كبيراً يا بكر .. وأخشى أن ينتهي ذلك ، بإكراهها على الزواج منك .
أَمسكْتُ على عكاكيزي بقبضتين قويمتين ، ورفعتهما عالياً . قلتُ بعزاء شديد :
يا ولي الدين . بيني وبين بدور هذان ، أما أنت ، فقد اختارتك البنت ؛ وهو ما يغنيك عن مغامرة ، ليست محسوبة العواقب ؛ لمجرد أن تطأ قدمك الكرمة لابن الزين الجساس ؛ الذي يعجزُ عن حمايتك ، أو حماية نفسه ممن يتربصون خلف جبل الوادي الآن . أما هي فإن لها في قلبي سعة البحر وداً وعطفاً وتراحماً .

استرسلتُ بمقال بدور ، بأن العجائز يعقدن جلستهن في الوكر ، وقد علمت بما ينوين عليه ، قالت أنت أعظم عندي من أن تكون زوجاً لي بإمرتهن يا بكر . قلت بإمرة الوداد يا عذراء القمر ، سأعلن للعجائز ما يسرُّك ، وما يقتل قلبي الذي ما انفتح لسواكِ . سأردهن مخذولاتٍ، بما ائتمرن به عليك يا بدور .

قال الراوي ، شاحذاً لسانه لولي الدين :
" اعلم يا فتي الأشراف ، بأن أعراف الكرمة ، وأعراف بني حميد لن تبارك هذا العشق ، ولا أري الآن غير أنك تتكئ بسيف الحياء على رقبة ابن الزين ، لكي تنال ما ليس لك به حق . أما عن ثأركم منَّا يا شريف بني حميد ، فإنه قائم ولا يزال يهددنا في ولداننا ورجالاتنا ، بعد أن صب علينا المالح ، ومحاريب الجبل لعناتهما ، واجتذبا قوتنا وبأسنا .

تبسَّم ولي الدين بوداعته ، قال موجهاً حديثه إلي الراوي :
- يا شيخ .. كأنك ما عرفتَ أشراف بني حميد من قبل ، وكانت لك مساعٍ كثيرة نحو الصلح بين القبيلتين ، وما كان من جهود ، فيما من شأنه المصاهرة بين الكرمة وبني حميد ، وما زالت قبيلتنا تشهد لك بأنك صاحب اليد البيضاء ، والداعي للسلام ، ومن ورائك البشير نعمان ، ومجلس الشيوخ في دار الحكمة .. لابد أنك أيضاً قد عرفتَ من يكون ولي الدين ؛ الذي استمرأ الصفح علي الثأر بشفعة بدور .. تلك الشفعة التي عابها غلمانكم ورجالاتكم ، واعتبروها مثار ذُلِّكُمْ وَهَوَانكُمْ أمام الأشراف ، وما جئتُ الآن ، إلا تأكيداً على رغبتنا في الصلح ، والسير على ما سار عليه البشير .

أصابني كلام الشريف بصدق ما يدعو إليه .. سألته عن وقع ذلك الصلح في نفس أشراف بني حميد ، فأجابني بضرورة الاعتراف بأن الأشراف أنفسهم ، يعيشون على أمل الثأر من الكرمة ، وأن أخاه (سالم) لا يزال يثير الأشراف ضده ، وهو ما يحيل مسعاه نحو الصلح والمصاهرة ، إلي كل ما هو صعبٌ ومحال . دلَّلَ الشريف على كلامه بحديث البشير إليهم من قبل ، وهو يقف جسوراً وسط المتحمسين منهم لقتال الكرمة . قال :
يا أشراف بني حميد ، إن الحاجة للخير تُبطل التفكير فيما سواه ، وأظنكم قومٌ تتدبرون وتعقلون .. فلا تقعوا في الصغائر والآثام ؛ بعدما ذقتم الظلم وعانيتم مرارته ، وإن الله قد مَنَّ عليكم بالخير ، وتعلمتم ضرب الأرض ، واستخراج منابتها ، وفوق كل ذي علمٍ عليم .
* * *

-29-
إن العجائز ينتحبن في الخيام ، ويلطمن أفخاذهن على ما حدث للغلمان في بطن المالح .. هكذا لا يمتلكن ما للرجال من الثبات في المصائب .. التاريخ يُعيدُ نفسه والأيامُ دُولٌ .
وصموني بالعجز والتخاذل عندما رفضتُ اللحاق بالقارب معهم ، وأشهروا في وجهي العكاكيز .. لقد حدثتهم عن نشاط البحر وتقلباته ، وحركة الأفعوانات العملاقة في ذلك النهار .. فلم يستجيبوا لي ، وتناوبوا عليَّ بالسب والشتام تهكُّماً :
فليحرس بكر الزين العجائز والأغنام ، لئلاَّ يغير عليهن غلمان بني حميد .

قالت بدور : " الآن يأتي فوازَ خبرُ غلمان الكرمة يا بكر .. سينزل الكرمة من جديد ، بعد أن أهملته العشائر مطروداً خلف الجبل .. سيدرك أن الفرصة قد سنحتْ، ليعتلى الكرمة في غيبة الرجال ، ويركب البحر ، بحثاً عن اللؤلؤ والماس داخل أنقاض المراكب الغارقة .. يقضي ما يشاء له فيها أن يقضي ، وتعود رباح امرأته ، تتبختر بحملها وسط الديار ، وكأنهما مالكا زمام الكرمة ، ومنقذاها من الهلاك الوشيك ، ومن يكونا حتى يصير لمثلهما الأمر في الكرمة ، والنهي فيها ، بعد هلاك من هلك .

لقد أمضي فواز زمناً، وهو بعيدٌ عن الأوكار .. إنه وقت كافٍ، ليكيد لنا فيه كيداً خفياً ؛ بعدما أنكرته العشيرة .. أنبئكم بأنه يُعِدُّ الحشود لملاقاتكم ، أنتم يا غلمان الكرمة ورجالها ونساءها وعجائزها ، مستغلاً عجزي ، وعجز الكرمة كلها ، بغياب ابن نعمان البشير .. أنبئكم بأن الغجرية سوف تلد له اثنين وثلاثاً وأربع ، في كل بطن ، ولدان من سلالة الغجر ، وسوف تختلط الأنساب ، وتصير الكرمة بطوناً مُهَجَّنَة ، وينتفي الجنس الواحد شيئاً فشيئاً، وذلك هو الخطر الأكبر .

أشعلتْ زهيرة النار فيما احتطبه زوجها .. تهاوتْ بدور مغشياً عليها .. علا صوتي بالخارج جهورياً :
البنت لن تحتملْ الكي بالنار .. إنها كرقائق النسيم ، هيِّنة .. ضعيفة ؛ وصفوانة لا ترحم .
انهالت عليَّ زهيرة بالرعود من وراء سترها ، قالت :
فلتمض إلي حالك يا ابن الزين .. أنت لست علي البنت بوكيل .. ابحث عن أمك أولاً، قبل أن تبحث عن ابنتنا .
حملتُها في نفسي .. تداركني بالخارج عمي فياض ، تأسي قائلاً :
- إن بدور قد أحاطتْ نفسها بسياجٍ من الذيوع والذكر يا ولدي ، بعد شفعتها في للكرمة فوق الجبل .. من بعدها باتتْ لحالها .. تنظر في وجه القمر .. تتمتم بما لا نفهم ولا نسمع ؛ أحاديث تشبه المناجيات ، حتى أحاط البدر بخصرها ، فراحت على أثره تتقصى مفاتنها في ماء البئر الصافي .. الآن يا ابن أخي تأتي صفوانة ، فاذهب لحالك حتى لا يروعك ما تسمع وما تري .

تراجعتُ مطأطئ الرأس على عكاكيزي ، باكياً باتجاه السماء التي انكفأتْ على آخر حدود البحر المترامية ، على امتداد النظر . صرختُ في العراء :
أين أنت يا بشير ؟ .. أين أنتِ يا ضاحية الكرمة ؟ .. أين مكامن الدفء ، وصدور الرحمة والملاذ . سينزلُ الكرمةَ محظورٌ ؛ بأفعال ساكني الأوكار ، الذين استباحوا اقتراف الأذى ، ووأد أفئدة العذارى ، وإكراههن على النوم تحت وطء ما يكرهن ، فتشتعل الخيام كرها على كره ، وتفرِّخ البطون أحقاداً بهيئة صبيان وفتيات ، يبدين للعراء بعوراتهم ، وينتحون مواضع الجرذان في هلع وجبن ، لا يتغلبون عليها إلا بالكثرة ، والانتشار في المراعي الموحشة ، والشقوق المبرحة والوديان .

أعلن فواز أن الكرمة قد خويتْ، وخَلُصَ المالحُ له ، فيما شارفتْ العجائز على الموت حزناً لفقدان غلمان الكرمة ورجالاتها في عرض البحر . لم يبق في الوادي من روائح الغائبين غيري .. أنا ابن الزين الجساس .. بعد أن تطاولوا متهكِّمين على عجزي ؛ أراذلُ الوادي ، الذين وصفوني بالأعرج ، الذي ابتلع المالح ساقَهُ من أجل عيون ابنة زهيرة .

ومن وراء أحقاده الدفينة تفوَّه ابن رابحه ، قال بأني سأظل أوزِّعُ عجزي ، بين البحث عن أمي تارة .. وتارة أخري أتوهَّم عودة البشير ؛ حاملاً لي وللكرمة الخلاص والدفء . وصمني بالمتعشِّقِ في العذراوات .. المرافق لأطوار الأماسي القمرية .. الممتدح لبدور .. بدور التي تورَّدَتْ للمالح ، وباتت تملأ الخاطر ، وتغشي العين بخفَّتِها علي رمل الوادي .

تحركتْ نار رباح في مخمدها ، كأن هاجساً بعينه قد أصابها ، فشحذتْ سكينها ، بعد أن أوغرتْ سهماً حارقاً تجاه زوجها .. صرخت في وجه العيال ؛ كمن تفرغ كيداً مكبوتاً في

صدرها . قال صغيرها (حمدون) بأن عنزتهم السوداء ، قد وضعتْ صغاراً أربعة ؛ على غير شاكلة ما تلد أغنام الكرمة كلها ، صغاراً أكثر ضعفاً وهزالاً .. مشوهي الخلقة .. لا تقوي قوادمهم على حمل أجسامهم . وكذلك تفوَّهتْ (فرحة)، التي قُدَّتْ من وجه أمها ، بأنه لا جدوى من تسمين هذه العنزات ، طلبتْ من أبيها أن يأمر بذبح إحداها ، بعد أن صرختْ من الجوع أحشاؤهم ؛ انتظاراً لخيرات المالح المزعومة .

انتفض فواز في موضعه آمراً رباح بذبح العنزة ، وملوِّحاً بكلماتٍ أكثرَ حدَّةٍ من نظرات الغجرية ، حين قال مسترسلاً :
لابد أننا قد أخطأنا عشارها ، بعد أن وطِئها تيسٌ غجريٌ، فنسلتْ صغاراً مهجنين ضعفاء .
توالتْ نظرات رباح النارية تجاه زوجها ، الذي تظاهر بعدم الاهتمام ، فيما تناثرتْ الدماءُ فوق الرَّمل القاحل محدثةً فورةً .. قال :
أما المالح ، فسوف تعود خيراته يا فرحة ، وسوف يعود لأبيك المجد يا حمدون ؛ حينما تهتز له أوتاد خيام الكرمة من جديد ، وتنتظرُ العجائز ، ما يفيض عن كف فواز ، مهطعين إليه ، ومقبِّلينَ يَدَ وليِّ نعمائهم .
* * *

-30-
لا طائل لنا الآن بمنازلة أشراف بني حميد ، بعد أن قويت شوكتهم ، واشتدتْ ظهورهم ، وكثرت أنسالهم ، ونحن لم نزل قلة قليلة في المورد والولد ، فمتي كان لنا ما يعزِّزُ قوتنا في الوادي ؛ أغرنا عليهم ، وانتقل إلينا ما في حوزتهم من حصيد وزرع ، وحتى ذلك الحين ، علينا أن نطأ الكرمة ، فإن لنا فيها أنساباً وأصهاراً وأهلاً، وإننا لن نرد السيئة بالسيئة يا عتاة الكرمة ، هذا ما علمتنا إيِّاه الطبيعة القاسية ، أن نتراحم فيما بيننا . هكذا تداهن (فواز) بكيده ، محدِّثاً الملاعين ، فيما أضمر في قلبه شيئاً أراد أن يستأثر به لنفسه .

نبايعك يا فواز على سيادة الكرمة .. أنت ولي الكرمة ، وسيد الوادي .. بهذا هلَّلَ الملاعين ، فيما بَرِقَتْ عينُ الخائن معلناً :
يا فحول الكرمة وعتاة الجبل .. إن أمامنا عملاً شاقاً .. عليكم باقتلاع الأشجار ، وجمع جلود الماشية ، وسوف أخوض بنفسي محاولة إقناع بكر بن الزين الجساس ، بأن يوافق على أن يجس لنا المالح من جديد ، وأن يعاود صناعة قوارب أخري ، تصمد في وجه البحر . سنتوجه يا رجال بعزمنا إلي بطن المالح .. سنبحثُ بأنفسنا عن القوارب الغارقة ، ونأتي بالخبر اليقين .

فضحتْ الكرمة كلها صوت خاطر فواز ، ونواياه ، كأنه ما أراد من وراء ذلك غير إحراز أحلامه القديمة وسط جلبة ما يجري في الوادي ، وربما حصدتَ وحدك يا فواز كنوز اللؤلؤ والماس ،

وخيرات المالح المدفونة وسط هياكل الغرقى ، وأنقاض القوارب في القاع . كان ذلك هو المسكوت عنه في مقال ابن رابحه ، الذي استرسل ، تسبقه دموعه الكاذبة ، بأن في الكرمة أهلنا وعزوتنا مهما صدر منهم لنا من إساءة وقسوة وجحود . علينا أولاً، برجال لهم خياشيم الحيتان ؛ حتى نستطيع بهم بلوغ ما نريد من خيرٍ للوادي .

حُملَ فواز على الأعناق وسط التبجيل والتهليل .. فيما قذفته رباح من داخل الخيمة بنظرة نارية .. ناداها من خلال الحشد .. أمرها بإعداد ما ذبحتْ للرجال .. لأجل العهد الذي صار بينهم . سهَّمَتْ، وما زال حديث خاطرها ملتهباً، بقوام بدور ، الذي بدأ يتراقص في عين الخائن ، وعلمه القاصي والداني :
إنها تخطف الآن الأبصار ، وإني لأشم رائحة مكرك يا فواز ، تذكرني بخيانتك الأولي .. إنَّ ذبْحك سيكون أيسر عندي من ذبح هذه العنزات المسكينة ، إذا سوَّلَتْ لك نفسك أمراً . إنني أحبك هكذا زنديقاً .. أحبك هكذا لا عهد لك ولا وفاء .. أحبك لأني أحب نفسي التي على شاكلتك يا ابن العرجاء .. العرجاء التي ماتت ، وهي تُهيلُ عليك اللعنات ، فلمن توفي بعد ذلك . ستخدع من تشاء من الرجال ، بما لديك من مهارة وتدبير .. لأجل رباح الغجرية ، التي اجتلبتها من بين الحانات ، ومساطل الحضر ، وأنجبتْ لك قبل أن يكون بينك وبينها عقد وإشهار .. أما بدور فهي ربَّة الصون والعفاف ، وبكر الزين ، بات عليلاً، بعد أن أسقمه فقد ساقه في المالح ، وأرهقه البحث عن أمه والبشير ، وأدمي قلبه غفلة بدور . فلا مؤيد له ولا شفيع ، بعد أن ذهبتْ ريح القوم ، وذابتْ أجسادهم في القاع .

* * *

-31-
نبش (الراوي) رماد الموقد .. نفخ فيه ، حتى خرجتْ ألسنة اللهب الحمراء ، فتصاعدتْ أبخرة الشاي ، فيما رحتُ في عوالمي مبحراً في نفسى ؛ ومستمعاً لغنائه الشجيِّ المهموس :
.....
(م تبوح .. غير بطلوع الروح .. م تشد قلوع البوح .. انطق .. لا نجسَّك يوم ، ولا نتدلى ف بطنك يا مليح ، لو هتقصقص رقابينا نصيح .. زي المدبوح ، المسروقة عنيه من قدام اللوح .. ساعة ما بينسي الفارق ، بين الحلو وبين المالح ، ويبحَّرْ بين الموج وبين النوح ، وبين الجي وبين الرايح)
.....

قطع الراوي خيط شرودي بقدح الشاي الثقيل ، قال :
فَلْتُلْقِ أعباءك في البحر يا ابن الزين .. لا تدع الهموم علي كتفيك النحيلين ، فما أثقل ما باتتْ عليه الكرمة من كربٍ، هو أدوم للفكر .. يا بكر .. عليك بإعادة الكرمة من جديد .. ترعي صناعتك وصناعة أبيك ؛ في تشييد قوارب جديدة ، فالحياة لن تتوقف يا ولدي .. بهذا دعاك

البشير من قبل ، ولابد أن تلهج بحروفه وتعاليمه . سيحتطب عمك الأخشاب ، وتتزوج من بدور ، وتعمُرُ الديار بنسلٍ، يحمل أعباء الكرمة ، بعد أن وهنتْ وراح ثراؤها وعزها .

تبسمتُ بهزأة ، قلت للراوي ، أن الأسوأ ، أن أحتفظ في قلبي بآثار حلم قديم . وما أكثر المسافات بعداً بيني وبين البنت الآن ، بعد أن ابتلع البحر قدرتي على الصعود إليها ، وأحبَّتْ شريف بني حميد رغم ما بين القبيلتين من عداء . نهرني الراوي .. قال إنها ابنة عمي .. ولم يعد في الكرمة من الغلمان غيري ، بعد هلاك القوم ، وقد شجب أشراف بني حميد أفعال ولي الدين ، وأنذروه بنزع الخلافة منه ، إذا استمرَّتْ علاقته بالكرميَّة . هذا ما تناثر إلينا من أخبار المعسكر الآخر ، بعد أن تطاولوا علي شريفهم ، واتهموه بالتخاذل في رد الحقوق .

سهمتُ، بما أصررته في نفسي ، وأنا أرشف حسوات الشاي الساخنة . تسلَّلَ وليُّ الدين إلي قلب بدور .. لم تعد تري سواه في النوم واليقظة .. هذا ما لم تعلمه زهيرة ، ولا عجائز الكرمة . لا أحد غيرك يا أنت يا شويح . من أجل شريف بني حميد أبتْ بدور أن توشم بوشم القبيلة .. من أجله أحبَّتْ القمر .. من أجله لم تعدْ ترفع عينها في عيني ؛ إلا طرفة عجلي مرتبكة ، كأنها تحاول جاهدة أن تأسف علي مصابي في قلبى ، ومن أجلك أنت يا بدور ؛ ستدب في نفس بكر الزين رغبة جديدة ، لمواجهة أخطار محاريب الجبل ، وجس المالح ، حفاظاً على بهاء حضورك ، ونضرة قلبك يا مليكة البوادي .

* * *

-32-

أطرقتُ لصوتٍ بالخارج .. نهض الراوي من جلسته .. قال : إنه فواز !! . أمسكتُ بعكازيَّ .. هممْتُ واقفاً .. كظمتُ غيظي ، قلت :

علمتُ أن جرذان (الكرمة) سوف تخرج من جحورها ، بعد الذي قد حدث في المالح

تخابث (فواز)، مبادراً :

لا تأخذني أخذ اللائم يا أخي يا بكر ، فأنا ما جئتُ الآن شامتاً، غير أني حَزِنْتُ لما حدث ، فهم بالأخير أهلي وعشيرتي .

ضحك الراوي تهكماً، قال :

هكذا يتقنَّعَ اللص قناعاً جديداً يا ابن الزين .

تجاهل فواز مقال الراوي ، متجهاً نحوي ، قال :

علمت أنك في هذا المكمن ، منذ رفضتَ اللحاق بالقارب مع الغلمان يا بكر .

بل قل منذ اختفتْ ضاحية يوم الشفعة يا فواز .

هون عليك ، واسمعني جيداً يا جساس ، فربما وضعت لك النقاط فوق الحرف .

تمالكتُ قواي ، قائلاً :

أنت ماهر في الصيد ، وفتل الشباك ، ولعب الأحابيل ، وأنا لا شأن لي بما ردَّدَهُ الناس من قبل ؛ بزواجِكَ من الغجرية ، أو ضياع المورد في المساطل والحانات ، لكن بيني وبينك حساب قديم .
أتيتك يا بكر ، من أجل أن أزيل ما بيننا من خلاف ، ولأجل إعادة الكرمة ، في أبهتها الأولي ، ومجابهة أخطارها ، ومعي ما يدل على صدق نواياي .
هكذا بادرني ابن رابحة ، فيما اندفع الراوي محذراً، قال :
لا تأمن مكر من أهمل أمه ، وجري وراء الغجريات وخرج عن أعرافنا ، ولا أدلُّ علي حقارة المرء من خيانته ، وعقوقه .
تطاير الشرر من عين فواز .. أشار إلي الراوي ، مخاطباً إيَّاهُ :
تذكر أيها الرجل أنك كذلك قد خرجتَ عن عاداتنا وأعرافنا ، حين أخفقتَ في إكرام ضيفك ، ومن يكون هذا الضيف .. إنه فواز .. سيد جبل الوادي ، وهو في غِنى عن ذلِّهِ بين أيديكم الآن .
توجَّهَ فواز إليَّ بالحديث .. فيما رُحْتُ أتأمله بكراهية ، استرسل قائلاً :
يا بكر .. أتيتك مصافحاً، فرددتَ يدي مخذولةً .. يدي تلك التي يتوافدُ لتقبيلها ، عتاةُ الوادي ، إرضاءً وتباركاً ؛ بعد أن بايعوني علي السيادة ، فأصبحنا قوة ، تعصمني من ذل حاجتي إليكم . أما عن ضاحية أمي وأمك ، وأم الكرمة كلها ؛ فهي ثأري وثأرك القديم ، من أشراف بني حميد ، وثأري وثأرك الجديد من ابن نعمان البشير .

تنبهتُ لسماع اسم البشير مقترناً بالثأر .. فار الدم في عروقي .. أحسسْتُ أن فوازاً يدبرُ مكيدةً جديدةً .. لم يحتمل الراوي ذكر اسم البشير على لسان الخائن ، فانكبَّ قابضاً علي عنقه بعنف، صائحاً، وملوحاً بعصاه في وجهه .. رأيتني مدفوعاً لتخليصه من يد شويح ، الذيَ انتفضَتْ عروق رقبته خارجاً عن وعيه ، قلت بحسم :
هات ما عندك يا هذا ، واقتصد يا فواز .
أعاد هندامه .. تحدَّث بمسكنة، قائلاً :
هكذا تصير الحقائق في الكرمة كالحنظل ، لا يطيق مرارتها أحد .. يا بكر .. يا ابن الزين الجسَّاس .. أجاد البشير خداعنا جميعاً، حتى نال مراده ، فيما سعي إليه ، منذ أن نزل كرمتنا ، أشاع أنه يعشق نرجس ابنة رفاعي ، ليواري رغبته التي تحققتْ، فتركتْ وراءها خيانة وخسة أنتم لا تزالون على ضلالكم القديم في إبرائه ، وتنزيهه من الخطايا والآثام .

لا أحد يصدق فوازاً يا بكر . أري أنه لم ينزل الكرمة ، إلا من أجل خداعٍ جديد ، يدعم به أسباب عودته . هكذا بادر شويح بالكلام . وكأني ما تسمَّعتُ الراوي .. رحتُ أسأل ابن رابحة بحدَّةٍ عن مراد البشير ، وما هي رغبته التي تحقَّقتْ ؟ ..
أخذ شهيقاً طويلاً وأخرجه بأسىً .. قال :
أعمتْكَ الشائعاتُ عن سرِّ اختفاء أمك يا ابن العزيزة ، وقد جئتك الآن لأخبرك الحقيقة التي أعلم أن وقعها عليك ، سيكون كالسُّمِ في (عضالك) يا أخي . هل تفكَّرتَ كيف تزامنَ اختفاء

أمَّك مع اختفاء البشير !! إن الحقيقة تفرض نفسها يا جساس البحر .. لقد فعل البشير فعلته ، وهرب بعد أن أوعز لضاحية ؛ وهو أمر حتمي لغريبٍ استأمنه الزين من قبل على حرماتِ داره ، فصارت الدار داره ، والـ .. !

لم أتمالك نفسي .. أخرستُه بصرخة من آخر صوتي الذي بدا محموماً، وانهلتُ عليه بعكازى فأصبته في أم رأسه ، وأرديته طريحاً، تسحُّ الدماء فوق وجهه . انهرتُ على الأرض ، ومن فوقي شويح يصُبُّ الماء على رأسي لأفيق ، فيما نهض الآخر واقفاً، متحاملاً على أوجاعه .. ومحتوياً رأسه بيديه ، وبينما راح يجفف دماءه ، كانت عيناه تسبحان في بحر ابتسامةٍ خبيثة ، جاهد أن يخفي وراءها شيئاً من الخسَّة والحقارة .

وقفَ معتداً بخيلاء ، وهو يراني مهزوماً في مواجهة الصدمة . راح شويح يَسُبُّ فوازاً، وهو يحاولُ أن يُريحُنى على الأريكة ، أفقت .. رأيتُ خيطاً من الدماء يتخلل شعره إلي جبهته ، قال بدهاء :
أنت مثل أخ لي يا بكر ، فافعل ما شئتَ، حتى تتأكد من صدق ما جئتك به . ستجد أمك حين تعثر على البشير ، وستجد البشير حين تعثر على أمك ، أما أشراف بني حميد ، فإنهم يعلمون هذا الأمر ؛ بعد أن ضاقوا بكل ما جاء به هذا الماجن ، وما حدثهم فيه عن الخير والعدل والحكمة ، بعد الذي بدا لهم منه ، في إخفاء ألف وجهٍ له ، والظهور بقناع زائف وحيد .
* * *

-33-
لقد أقام ابن نعمان البشير سراً في دار الشريف ولي الدين ، حتى أعقبته أمك يا بكر ، وهناك كان زواجهما الذي شهد على عقده ولي الدين ونفرٌ من الأشراف ، فيما واصل ولي الدين انتقامه من الكرمة ، بما هو أعنف من النزال والحرب فوق الجبل . إن رغبته في الزواج من بدور ، التي نذرتْ لك يا ابن الزين ، على مرأي ومسمع من الكرمة كلها لهو الإذلال بعينه ؛ وليستكمل بذلك حلقة الخداع ، والخيانة التي بدأها ذلك الغريب .. الغريب الذي أعطيتموه الأمان وجعلتموه المرجع لكم والمآل ، حتى كان له فيكم منازل الإكبار ، بما خدعكم به من قول وفعل .

لقد أبلغتك ما عندي من الحقائق يا جساس البحر ، وإن كانت مُرَّة .. نعم .. لقد تعبتُ في حياتي السابقة يا بكر ، ونلتُ عقابي بالابتعاد عن الكرمة ، ومخالطة الملاعين والسكاري . أما الآن فإنني أحاول أن أتبرَّأ من كل خطاياي ، وأعود بينكم وفي أحضانكم ، وما كنت أصْدَقُ حديثاً من الآن ، وما أردتُ غير أن نتوحَّدَ ضد الأخطار الحقيقية ، التي باتت تواجهنا في هذا الوادي المسوس بالكراهية والخيانة من البشير و ولي الدين ، وسالم بني حميد ، حتى نصبح قوة تصمد أمام جلبة القوت ، ووعورة الطبيعة ، وقسوتها .

نظرتُ إلي فواز ، قلتُ بصوتٍ خائرٍ :
" هات من عندك .. "
برقتْ عينه بنشوة خبيثة .. دفن أصابعه في خراجه .. أخرج ثلاث صرر ، ووضعها أمامي في هدوء وثقة ، قائلاً :
" لترَ ما بها يا ابن العزيزة " .
راح يفتح الصرة الأولي ، فإذا بها مليئة بنقودٍ معدنية وذهب . بادرني قائلاً :
" هذا كل مالي يا بكر ، فادخره بنفسك ، ليكونَ في خدمة بناء الكرمة الجديدة ، واستعادة مكانها بين العشائر " .
تناولتُ الصرة الثانية ، فاسترسل قائلاً :
" إن رجال الجبل بايعوني على سيادة جبل الوادي ، وعشائر إكباش كلها ، ونصرتهم ، تمهيداً لتأسيس عشيرة منفصلة عن الكرمة .. هذا هو صك يبايعك فيه سيد الوادي بنفسه ، على سيادة الكرمة وجبل الوادي معاً .. على أن يكون ساعدك الطيِّع هو ورجاله ؛ وذلك لوحدة الصف الكرميِّ " .
تناولتُ الصرة الثالثة . راح (فواز) يُخرج صرة من صرة ، حتى أخرج (عُصابة رأس) سمراء . طرحها أمام عينيَّ الرائغتين ، رحتُ أتأملها ، أشم رائحتها في ذهول ، علا صوت شويح الراوي في الوراء بمفاجأة مدوية :
" إنها عصابة رأس ضاحية ، التي كانت تعتصب بها ليلة النزال " .
نظرتُ في قاع عين فواز ، الذي تبسم قائلاً :
- " أما هذه الصرة يا ابن الزين الجساس ، فقد احتفظتُ فيها بحجة براءتي ، وإبطال الشائعات التي غرَّرتْ بي ، وادعتْ أن لي يداً في اختفاء أمك بدعوى أنها الوحيدة التي كانت تعرف سرِّى في (الدراويش)، وبدعوى أنني كنت أكرهها لتطاولها عليَّ في مجلس العجائز ؛ فكان سبباً لنزوحي خلف الجبل مطروداً .

هذه العصابة قد عثر عليها عمَّك فياض باتجاه ساحة النخل المؤدية لديار بني حميد القديمة .. دبَّت قدمُ عَمِّكَ بالقرب منها .. لم يخطرْ بباله أنها عُصابة أمك ، فقد أطفأت الرمال الساخنة زهو ألوانها ، فيما وارى التراب زخارفها ، وهو شاهد علي صدق حديثي . تلك العصابة التي أعلنت العجائز ليلة اختفاء أمك ؛ أنها كانت تعتصبُ بها ، ولما زأر أشراف بني حميد فوق الجبل ، إيذاناً بالقصاص من غلماننا ، هجعتْ ضاحية إلي منطقة بئر الوادي ، رأتها امرأة أخري .. كانت منكوشة الشعر ، ولم تكن العصابة على رأسها .

كانت على غير عادتها .. انتابتها الرعشة ، وتطوَّرَتْ أطواراً غريبة ؛ حتى تسلَّل نفرٌ من بني حميد سراً من فوق الجبل ، أثناء شفعة بدور لقومها ؛ فاختطفوها على ظهر جوادٍ، إلي حيث أقام البشير عند منطقة الأشجار القديمة ، بعد أن ترك دار الشريف ولي الدين تحسباً لوقوع الفتنة في قبيلتهم .

أما العُصابة ، فإنها الدليل الأكيد على التقاء الطرفين ، بتلك المنطقة البعيدة الفاصلة ؛ مما أصاب دخيلتى بريبٍ، وجعلني أضع النقاط على الحروف ؛ ولأتأكد بعين اليقين ، وتتأكد معي يا ابن الجساس بأن ثأرك وثأري الآن لدي ولي الدين والبشير معاً، وأزعم أن ولي الدين قد تكتم على خبر البشير دون أن يعلنه ، حتى يتمكن هو الآخر من نيل مراده من بدور . ليكون ذلك هو أشد ثأراً لبني حميد من الكرمة وغلمانها .

تحركتْ عيني في محجريها .. تودَّدَ فواز ، قائلاً :

" يا بكر .. إن لي بعدد هذه الصرر مطالب .. أولها ، أن تُبَرئَ ذمَّتي أمام عجائز الكرمة ، مما اتُهِمْتُ فيه باطلاً، وأعلم أن لك عليهم سلطاناً الآن ، بعد أن أثبتَّ بأنَّك الوحيد بعد أبيك القادر على مصاولة البحر ، وجسه ، وصناعة القوارب الجديدة "، وثانيها ، أن يكون لنا في الديار متسعٌ، لتوحيد الجهود المشتركة بين الكرمة وأصفان .. أما المطلب الأخير ، فهو أن تواصل صناعة الجساس ؛ بما لديك من مهارته وخبرته لصنع أسطول قادرٍ على خوض غمار المالح من جديد " .

* * *

-34-

نعم انقلب سالم على أخيه ولي الدين .. انقسمت قبيلة بني حميد على نفسها ، بعد أن خاب رجاء الأشراف في شريفهم ، الذي بات متيماً بعشق الكرمية ، متجاهلاً دماء الأشراف ، التي أهدرتْ على سفح جبل الوادي غدراً . كان هذا هو حديث سالم للأشراف :

" افعل ما بدا لك يا ولي الدين ؛ إلا أن يكون بيننا وبين الكرمة عهد ؛ أو يصبح نسبٌ بيننا أو مصاهرة ، وإن تفعل هذا ، تكن الفتنة ، وتكن خارجاً عن تأييدنا لك فيما خصَّتْكَ به القبيلة من إجلالٍ وتعظيم . كيف تجهل الأكف السوداء ، التي أطاحتْ بنا غدراً، وقتلتْ أحلامنا ، وبعثرتْ ديارنا ، وقطعت علينا الطريق إلي المالح ، وحرمتنا ماء البئر الحلو " .

قال ولي الدين رداً على الأشراف :

" إخوتي .. كيف تقتصُّون من قوم ، أهلكهم المالح ، ولا يزال الجبل يهدد نساءهم وعجائزهم وولدانهم وملاعينهم ، بالهلاك من حين لآخر . أليس هذا عذاباً أكبر من إغارتنا عليهم ، وقتلهم .. أما بدور ، فإنها قد استنصرتنا ونحن قوة ، وشفعتْ لقومها ، وهم ضعاف أذلاء ؛ فحق على الأشراف أن يتنـزَّهوا عن الانتقام حقاً للدماء " .

تجاذب الأشراف أطراف الحديث بينهم ، قالوا رداً على شريفهم :

" يا ولي الدين .. الآن باستطاعتنا صنع قواربنا ، ومعاودة المالح مرة أخرى ، واستخدام البئر ، وبناء ديار لنا في الوادي ، وبمحاذاة الساحل ، ونعيد مجد قبيلتنا " .

اجتمع ولي الدين بالأشراف ، وقد أدركه الصواب ، فيما استند إليه من حجة ؛ رد بها قول الأشراف لرغبتهم الأكيدة في خوض غمار المالح من جديد ؛ بشرحه أسباب تصدُّع محاريب الجبل ، والإنذار بالهلاك الدائم ، الذي بات يهدد ساكني الوادي كله .. أشار كذلك إلي فواز ، الذي لا يُؤمَن جواره ، ولا يتورع في أن يجدد الدماء ، قائلاً :
" الآن بدأتْ زراعتنا تزدهر ، وتنمو حولها حضارة جديدة ؛ بعد أن أجبرنا على ترك مالنا في الوادي ، وأعدنا بناء أنفسنا " .

امتعض سالم .. أخذته العزة ، قال :
" يا شريف بني حميد .. يا أشرافاً أنجبتها النساء في ليالٍ راجفة آثمة .. كيف نستهين بأمر ثأرنا من غلمان الكرمة .. هذه وصايا آبائنا ، لا تزال حول أعناقنا ، حتى يطمئنوا في مراقدهم ويستريحوا .. أما أخي ولي الدين ، فإنه قد عشق الكرمية ، تلك التي أنسته واجب الدفاع عن كل مقدس وعزيز ، دم أشقائكم وذويكم .. لتكن لكم إذن مكامن الخوف والذل والعار ؛ بدعوى شفعة الكرمية لقومها ؛ وبدعوى العشق ، الذي راح شريفنا في أسره معذباً زائغ الفكر ، عليل الفؤاد ساهداً، متأملاً أطوار الليالي القمرية " .

تزعزعت الحشود .. ارتبكتْ الأفواهُ .. ثرثرتْ الشفاه ؛ تأييداً لسالم . قال ولي الدين :
" إذن هي الفتنة .. الدسيسة التي تحيكها حول أخيك يا ابن أم .. لأجل ما يتفتَّحُ في دخيلتك ؛ لتنال مبايعة بني حميد ، وتتولى شؤونها ، والأمر والنهي فيها .. لكنك أخطأت الوسيلة يا أخي ؛ حين اخترت فتنة الناس ؛ وإثارة القلاقل بينهم ؛ وتحيَّنتَ كل الفرص الممكنة ، بما في ذلك رغبتي في الزواج من الكرمية .. البنت التي أذعنتْ لنداء البراءة والطهر في غسل القلوب ، وتضميد الجراح ، وإنهاء رؤى الفجيعة والدماء المنتثرة هنا وهناك . أهيب بكم يا غلمان بني حميد ؛ ويا أشراف الديار .. الديار التي ما روي الحقد صدورها يوماً، أن تعيدوا النظر في تأييدكم لعاهل الديار ، وإن لم تفعلوا ، فعليكم التبعة ، ولكم الخَيَارْ " .
* * *

-35-
أثار حديثي بمجلس العجائز دهشة القوم ، فيما اتخذتْ بدور موضعها في وكر أبيها ؛ تتسمَّعُني وأنا أبرئُ ذمَّة غريمى الألد فواز ، وسط جموع غلمان وملاعين ونساء وشيوخ وعجائز الكرمة ، فوق رمال الوادي .
أحسَّتْ في حينه أن الأمر لا يخلو من ريب في دخيلتي . وأن فوازاً قد تسلل إليَّ، بشتي طرائقه في الخداع والمناورة .. هذا ما بدا عليها ، ونطق به حالُ عينها قبل حديثِ لسانها .
استرسلتُ في الخارج ، مخاطباً العجائز بما أثار بهتانهن :
" إني من هنا – وأمام أعين الكرمة – أبرئ فوازاً من كربة أمي ، وما أحيط حولها من شائعات ، بعد ما تقصَّيْتُ الحقيقة ، وبدا لي ، ما بدا منها لعيني ، جلياً لا ريب فيه ولا

خداع .. لتعد يا فواز إلي الكرمة ، برفقة الرجال والغلمان المطرودين من الديار . إنكم أبناء الكرمة وحملة التبعة ؛ بعد الذين ابتلعهم البحر . ولأجل نماء الكرمة وبنائها " .

انفضَّ الحشدُ، وسكنَتْ الكائنات داخل حواكيرها ، واجمة رافعة الأذناب في أرقٍ، يبعث إلي الهلع ، من مطلع شمس جديدة تُلهب رمال الجبل المندك . وتخيَّرتْ رباح وكرها بين الأوكار المترامية في سكون الليل ، ولا نامتْ عين فواز عما أصرَّه في نفسه .

أما بدور فقد بدأتْ أمورها تتعقَّد ، كلما واصلتْ محاولاتها اليائسة نحو إيجاد سببٍ، يدعو لتغيُّر مواقفي مع فواز . تحركتْ زهيرة .. وتململَ فياض ، فيما تسللتْ بدور على أطرافها .. خرجَتْ خلسة إلي الساحل . كان القمر قد اقترب من الثرياً، إلا قليلاً منه لا يزال مفعماً بغضبٍ أَشِرْ .

الأمواج ساكنة كالحواكير والفخاخ .. كل شيء يشي ببراءة ساطية ؛ تثير الخوف وتجلب الهلع من مفاجأة المالح لها بوجه فواز ، أو أحد مريدي الظلام . ومن بين قطرات الدمع الساخنة ، تحرك البحر في عينيها ، فتهامسَتْ بكلماتٍ اعتادت أن تناجيه بها في وحدتها ، بطول المالح وعرضه :
(جئتك عاريةً منِّى ، يا بحر الأمواج السوداءْ .
والدفةُ ترقصُ كالحيَّة في الماءْ .
والقمرُ الغاطس بالأسرار الحُبْلى ،
حتى القاع يُخَبِّئُ منِّي أصْدَافهْ) .

توكَّأتُ بجلبةِ العكاكيز ، خارجاً من كل شيء . أنتِ مثلي يا بدور .. يدين المالح لنا بالمجهول .. اهتزَّتْ من سكونها ، أشارت برأسٍ مثقلة، إلي القمر الباعث فيها هزَّةً وقشَعْرِيرَة ، قالت بأني جساس البحر ، والبحر شيخ جليل مهيب ، يلتحف بعباءة الليل في سكون رهيب ، إنه يثبِّتُ عينيه على أحزاننا ؛ فترقص موجاته السوداء حول الدفاتِ والقلوع ، فتثير فينا الأرق والسهاد .

تباعدتُ مجذوباً إلي القمر في عين بدور ، وما بين المالح والبدر ؛ بدور الكرمية .. تُغَافِلُ القومَ ؛ دون أن تعلم ماذا يعني أن تكون لأحلامنا عكازان .. ولبكورنا فزعة الكابوس .. ولوجوهنا مسحة الخديعة والذل .. ولشرابنا مرارة الأوهام . أعلمُ يا عذراء البوادي ، أني قد أسرفتُ ليلة البارحة ، في تبرئة فواز بمجلس العجائز .. أعلم أني قد أسأتُ لأمي ، حين انتهيتُ فوق هذين العكازين الدميمين ، لكن لفواز رجالٌ أشداء غلاظ القلوب من ملاعين الجبل ، فالموت أخطبوط يلف أذرعته حول أعناقنا يا ابنة عم .
همسَتْ البنتُ في ذهولها ، قالت :

- " إن الحاجة إلي مثل فواز وأعوانه ، أسوأ من هلاكنا وسط فورة المالح ، أو تحت صخر المحاريب يا بكر " .
- ليس لنا غير اختيار أخير يا بدور .
- أفسحَ لنا ولي الدين ديار بني حميد ، وقد رفضتَ أنت والعجائز .
- ديار الأشراف أرحب لذلنا ، وأدوم للعار .
- حتى أنت يا جسَّاس البحر ! .
- الآن يحمل الجساس تبعة الكرمة يا بدور . هكذا شاءت التدابير لكي أعيد بناءها ، وأعيد الأمن فيها .
- الأشراف ليسوا أعداء أحد .
- بل إنهم أعداءٌ لي ، وثأر أمي لديهم ، ولدي البشير نعمان .. إنها الحقيقة الوحيدة ، إلي أن يأتوا بغيرها .
- أكادُ أري فوازاً يتحدث الآن من داخلك بصوته وغشاوته .

انصرفتْ بدور إلي وكر أبيها ، كانت رباح قد رمقتها بنظرة فاضحةٍ في الخارج . بدَتْ زهيرة واجمة حزينة ، قالت :
" أسلمتْ بدور نفسها للهلاك يا فياض .. تسلَّلَتْ، ومن ورائها بكر الزين إلي العراء ونحن غافلان .. هكذا فعلت البنت " .
وبمكرها تسللتْ الغجرية إلي قلوب العجائز سريعاً . لم يعد يخلو مجلسٌ لهن ، إلا وتكون بينهن بمداهنتها ودربتها على الخداع والمكر .. تهمسُ في آذانهن همسَ الغي والضلال .. تروِّج الشائعات حول بدور وبكر الزين . يضربُ فياض على رأسه ، وتندب زهيرة حالها . الآن يأتي ابن الزين برفقة بدور معاً إلي المجلس .. وتحضر زهيرة وفياض والرجال والنساء والغلمان . وسوف تُصدر العجائز حكماً قاطعاً، فيما يشاع في الكرمة حول أبناء العم .
قالت بدور :
" إن الغجرية قد أشاعتْ الفتنة ، وتآمرتْ عليّ، أما (بكر الزين) فإنه الآن سوف يعصمني ، ويعصم نفسه من زواجٍ بينه وبين أخته بدور .. ذلك ما عاهدني عليه الجساس قبلاً " .
* * *

-36-
جال الراوي بعينه بين الأوكار الناعسة ، تحت سقيفةٍ من سواري البكور الذي احتضن المالح .. تثاءب وارتد للداخل .. تأرقتُ في مضجعي ، وإلي جواري ، تعامد العكازان المنتصبان ، في خشوع وألم .. في ذلك الصباح الباعث للرهبة ، أعلم ما يدور في عقلك وقلبك يا شويح .. لابد أنك ستصرخ في فراغ البرية بلا صوت .. نعم ينبغي أن تظل بلا صوت يا شويح ؛ بعد أن استغلظ قلب بكر ابن الزين الجساس .. بما أضمره في نفسه من أفعال الحمقى .

لابد أنك قد تهامست لنفسك بهذا المقال ، وأنت تتملي وجهي .. فيما أتظاهر أنا بالغرق في النوم ، حتى أتفادي نظراتك اللائمة .. هل تبدَّلتْ البراءة في وجهي .. هل تراكمتْ عليه الذنوبُ، أو أصبح مغبَّراً بلعنات الأرض والسماء ؟ . تري ماذا يخبئ المالح في طياته من جديد ؟ بعد أن انتصبتْ قوارب جديدة على الساحل ؛ واحتشد فواز لملاقاة البحر ، بدعوى التنقيب عن أثر الفلوكة التي غرقتْ في بطن المالح ، ولم يبق منها غير الشيوع والذكر . هل ستعترف بهزيمتك أمام خداع فواز يا ابن الزين ، أو أنك الآخر ستنقض العهد مع ولي الدين وبدور ، عندما تتحين الفرصة في مجلس العجائز ، وتسرق أحلامك القديمة في الجلبة ؛ بعد أن تبحرُ القوارب ، وتعود بالخبر اليقين للعجائز ، أنت ، وغريمك فواز . أنت لم تتعلم شيئاً من أبيك يا بكر .. فلا خير في صناعة بلا قلب .

كانت الأمواج تتلاطم من بعيد ؛ والريح ترعش النخل من قريب ؛ والأوكار ترتجف . قال (الراوي) :
- " في هذا الصباح لا أحمل في صدري غلاً لأشراف بني حميد ، فقط أحمل حسرة وألماً لنفاذ الخائن إلي نفس الأمين . في هذا الصباح كان لابد أن يندك الجبل .. أن تقتلع الرياح أوتاد الخيام ؛ أو يخرج المالح عن أخدوده ، فيطمر هذه الكائنات المفزعة ؛ دون بدور وحدها . تري ما الذي ينبغي أن تصنعيه بأعينهم يا ابنة زهيرة ؛ لكي يشتروا لكِ ضحكة جديدة ؛ كحليب تلك الشياه ، التي لم تعكرها الضغائن والفتن والمؤامرات ، ولم يهددها الفقر والجبل والمالح " .

بدأت رباح اليوم كعادتها بضرب حمدون ، وسب فرحة ، ومزاحمة النسوة اللائى يملأن الجرار بماء البئر ، فيما سعل فواز بشدة ، وتمخط من فمه ، ما تراكم على صدره من هباب الماضغة والتبغ . أحس أن عهده قد بدأ اليوم ؛ بوطأة المالح مع رجاله الجدد ، بعد أن انتفخت أوداجه ، ومشي بزهوٍ وفخار وسط الكرمة ، وانتفختْ بطن الغجرية بذكورته ، وانطوي ابن الزين طياً في خراجه الصغير ، ممتثلاً له فيما أراده من قوارب جديدة . قال :
" يا بكر ، لا تتعجل الزواج من بدور ، حتى نتزوَّد من المالح ، بما يملأ القلب طمأنينة والنفوس أمناً، حتى إذا ما انتهينا من أمر المالح تدبرنا أخطار الجبل ، وبعدها سيكون لنا مع الأشراف أياماً طوالاً، ويكون العثور علي ضاحية والبشير سهلاً ميسراً " .

كان فواز يهدف إلي كسب أوقات لتَدَبُّرَ الأحوال ؛ بعد أن رقصتْ بدور في أعماقه ، وتراجعتْ شخاليل الغجرية ؛ التي باتتْ تذكره بحقيقته العارية ، وانكسار عينه تحت أقدامها في ماخور (دردوش) الساقي بالدراويش ، ومع تجار الحضر من الموالي المسوخين . دبَّتْ حركة جديدة في ذلك اليوم ، وعمَّت الكرمة وجوه غريبة من التجار وخفر السواحل ..

ترك فواز الكرمة إلي ربوة الجبل ؛ حيث التقي برجاله ، وتناثرتْ أحاديث فيما بينهم ، قال :

" الآن أصبح المالح في يدي ، وبكر الزين في خراجي ، بعد أن ألهيته بثأره من بني حميد وأشرافهم ، وغرستُ منابتْ الكره في صدره تجاه البشير . الآن أستطيع بكم أن أطأ المالح ، بحثاً عن كنوز اللؤلؤ والماس ، التي غرقتْ مع القوارب في القاع . لابد أن نهيئ صدورنا لهواء جديد " .

كان الراوي يقصُّ أثر فواز والرجال من خلف الهضبة القريبة .. راح يتأملُ صحبة الخائن بعنت شديد . هالهُ ذلك الأقرع البدين ؛ ممتلئ الكرش ، وهو يضحك ضحكة بعيدة مكتومة . تقلَّبَتْ ذكرياتُ قديمة في رأسه ؛ وهو رابض خلف الهضبة العالية يقبض حفنة رمل ، وينثرها في الهواء فتعفر وجهه .

هذا الوجه لابد أن يكون وجه (الموالدي) .. نعم هو بثمالة كرشه ، ونظافة رأسه وحماقة جبلته .. (سعدون الموالدي) ابن أم (رباح) الغجرية .. تعيده الأيام مرة أخري في ذلك الصباح ، الذي تهيَّأتْ القوارب فيه لخوض جديد ؛ بعد أن استغرق ابن الزين الأيام الماضية في جس البحر .
* * *

-37-
راقبتْ بدور ما يحدث داخل وكر العجائز .. قالت صفوانة :
" رأينا يا ابن ضاحية أنك أولي بالبنت من غيرك ؛ بعد أن طاولت أقدامها ديار بني حميد في السر والعلن ، ولم تعد توقِّر كبراء عشيرتها أو أولياء الأمر فيها .. وقد أجمعت العجائزُ على هذا الأمر ، ووافق فياض ، وأصبح القول لك أنت يا جساس ، فيما فيه عز فتياتنا ، وتعظيم أعرافنا التي جُبلنا علي احترامها " .

كانت الوجوه تنظر بشغف وشوق لسماع صوتى .. الجميع في صمت مهيب ، و رباح تترقب أسارير وجه زوجها الجالس باعتدال أثير . أما بدور ، فقد توالت دقات قلبها سريعة متلاحقة ، بعد أن طال صمتي .. تصادمتْ أحاديثُ الخواطر .. الأمر لا يحتاج إلي تفكيرٍ يا ابن عم .. الآن أصبحتُ أخافك يا بكر وأرهبك .. يا من كنت أميناً على بدور .

ومن بين العيون تلاقتْ عيني بعينها ، فيما بين الرجاء والخوف ، ارتمت زهيرة على مؤخرتها صامتة واجمة .. وكأن لسان حالها يتساءل :
" ما الذي تخبئه لنا يا بكر ، غير أن نرحل من الديار ، ونسيح في صحراء البوادي " .

تخلي فواز عن اعتداله .. لاحظتْ رباح تبدل حاله على المقعد .. بدا شغوفاً لما بعد هذا الصمت المريب . سقطتْ عينى من عينيَ بدور على الأرض ، قلتُ :
" قبلتُ وشمها .. وأنا أحق بها " .

انطلقتْ الزغاريد من داخل الوكر .. ارتمت زهيرة مغشياً عليها ، فيما ظلَّ فياض في مكانه لا يحرك ساكناً .. أما بدور فقد خرجتْ من وكر العجائز إلي وكر أبيها ؛ تكفكف دمعها ، وتختفي عن أعين الناس ، ولا تتحدث لأحد .

سألني الراوي معاتباً :

" يا ابن الزين ، ما الذي دفعك لتنقض عهدك مع بدور و ولي الدين ؟ "

أجبته بكل ما تحرَّك داخلي من أسي :

" ما المسئول بأعلم من السائل يا عم شويح .. أقول أنك قد أغفلتَ عشقها لمن لديه ثأر أمي وعداء عشيرتي " .

علا صوت الراوي ملوِّحاً في وجهي ، قائلاً :

" تلبسك فواز يا ابن ضاحية ، بخداعه ودهائه ومكره ، فأسبغ عليك من غشاوة قلبه ، ما يجعلك عبداً ذليلاً له يحركك كيفما يشاء ، وكنا قد عقدنا الأمل فيك لحكمتك ، وسمو بصيرتك ، ومهابتك ، واستشرفنا بك ، عهداً جديداً، لا رجز فيه ولا دماء ، ولا بغض ولا عداء .. الآن خاب أملنا فيك بعد أن تجبَّرْتَ، واستحللتَ إكراه بدور على الزواج منك في المجلس ، وهو ما يجعل بيني وبينك فراقاً، حتى تعود إلي رشدك يا ابن الزين " .

صرختُ في وجه الراوي صرخة ضياع :

" ألم تكن تلك رغبتك يا شويح ، وأنت أول من بشَّرني بحكم المجلس ، وبارك هذا الزواج ؟! "

أصابني شويح بكلماته التي أوغرتْ في صدري حزناً .. قال :

" كان ذلك أيام كنت بكر ابن الزين الجساس .. أما بعد أن تحوَّلتَ إلي مسخ من ابن رابحه ، فإن للبنت أن تملك زمام أمرها ، أمام من نقض العهد معها ، لأجل المكائد والمؤامرات والفتن " .

شرع الرجل في جمع حاجياته حتى استوقفته .. قلت له :

" كأنك تطردني من دارك يا عم شويح " .

أجابني بيأس :

" الوكر وكرك يا ابن ضاحية .. أما أنا فالرِّبْع ربْعي ، وأرض الله واسعة .. هكذا فعل أبوك من قبل .. ترك الكرمة والوادي ، وهو لا يزال صبياً، بَعد أن شعر أنه فقد فيها الأنيس والجليس والصاحبَ، وبعد أن ساءت الأحوال ، ودسَّتْ زهيرة الفتنة بينه وبين أخيه فانقسما " .

قلت يا عم شويح ؛ رحل أبي بحثاً عن رزقٍ غير المالح ، أما أنت فإلي أين تشد الرحال ؟ ..

تمتم وهو يحزم صرَّة متاعه :

" لم يعد الخير فيك ، ولم تعد تشبه أباك .. رحم الله الرجل الطيب ، ورحم الله سلطان بن سالم المُعلم ، اللذان أترحاني بفراقهما ، وكنتُ أحسبك خير خلفٍ لخير سلف يا جساس " . قلتها :

" لا عليك يا عم شويح .. فالوكر وكرك ، وأعود أنا إلي وكر أمي " .

نظر شويح نظرة مفعمة ، وتحرك تجاه باب المكمن ، لم أستطع أن أتحمَّل فراق الأنيس الوحيد في وحشة أيامي .. هممتُ أن أجذبه من طرف جلبابه ، فاختل جسدي ، سقط العكازان وهويتُ

على الأرض باكياً من دون حولٍ ولا قوة . تراجع (شويح) لنظراتي إليه .. جذبني لصدره .. أطال .. وأخذتنا سِنَةٌ من بكاء شديد .

* * *

-38-

ملأتْ زهيرة الكرمة بالصراخ والعويل . راحتْ تلطم خديها ، وهي منهارة على مؤخرتها ، وإلي جوارها فياض يزجرها . خرجتْ كل العجائز من أوكارهن ، واستطالتْ رقبة رباح الغجرية من فتحة وكرها ، وهجع الفتيان باتجاه وكر فياض ، فيما راحت امرأته تهيل التراب على رأسها ، وتعلن هروب بدور .

لسماع صوت زهيرة ، انتفضتُ من رقادي .. جذبتُ عكاكيزي .. تحرَّكتُ برفقة شويح ؛ باتجاه دار عمي ، أطلتُ النظر في وجهه ، والشرر ينبعث من عيني . نظر إليَّ نظرة مفعمة باليأس .. بادرني بخبر هروب ابنته ، بعد أن أعلنتُ قبولي وشمها ، والزواج منها ، داخل مجلس العجائز .. نعم وشمتنا البنت بالذلِّ والعار ما حيينا ، وأخذتْ في وجهها ، وتركتْ الديار بعد حكم العجائز . قالت بدور بأني نقضتُ عهدي معها ، وأذعنتُ لحكم العجائز .. فيما أُكْرِهت البنتُ عليه .. وأنا أعلم أنها ما كانت تريد أن أتقلَّص في عينها ، لتراني شبحاً يطارد أيامها ولياليها القادمة .

استدارت عيني في محجريها .. نظرتُ إلي المطلق ، نظرة صقرٍ ثائرٍ، همستُ .. الآن حلَّ موتك يا بدور ، وأنت يا ولي الدين ، وحلَّتْ اللعنة عليك يا بشير .. ومن بين الرمال الصفراء جذبتُ قبضة ، وأطحتُ بها في وجه الكرمة مستأسداً وأنا أزأر ؛ كمن أغلق قلبه استشرافاً لعهد أحاطته المكيدة والظنون .

قال الراوي :

" الآن ماذا تنتظر الكرمة منك يا ابن ضاحية ، بعد أن نزل فواز بقلبك منزلاً، أطاح بكل شعور فيك وكل إحساس ، وسيطر علي عقلك وقلبك وبصيرتك .. تلك التي كنت تجس بها المالح ، ونشم فيها بداخلك طيب ريح أبيك ، الذي ترحمتْ عليه السماوات والأراضين ، وترك لك إرثاً في ذاتك ، يكفل لك حق الحياة في معزلٍ عن الحقد والضغينة والظلام . أي مصيرٍ ينتظرك يا جساس البحر ، وأنت تحس بوابل من النيران يتفجر بين جنبيك ، كأنها الروح الأولي تغادر في أسفٍ، وتصعد غير مستأنسةٍ، ولا مستبشرة " .

* * *

-39-

لا عليك يا ابن الزين .. أنا ورجالي رهن إشارتك ، هكذا تحدث فواز ، فيما أمرْته بإرسال من يبحثون عن ولي الدين وبدور ، والبشير ، بعد ذلك نصنع عصبةً، ونعدها لخوض معاركنا

الكثيرة القادمة ، فالأمر لم يعد يحتمل بداخلي ، أن أظل على وهميَ القديم ، فما الحلم بدون بدور إلا هذيانٌ سمجٌ .
زام فواز ، كأن لسان حاله تحرك بكل ما انطوي في دخيلته من مكر :
" مازلت تحبها ، بعد الذي أصابك منها يا بكر ! " .
" لم يعرف أحدٌ ما هو مُصابي الحقيقي .. إن مصابي أن أبي ، لم يترك من خلفه رجلاً، يستطيع حماية أمه .. فهل أستطيع بعد ذلك أن أحافظ على عشق عمري كله " ؟!

أدان فواز إسرافنا ، أنا وأبي ، في حب البحر .. كما لو كان هو المجد الذي ينتظرنا في الحياة وبعد الممات . إن كل ما صنعته في المالح كان وهماً، أوعز إليَّ به البشير ؛ الذي بتُّ أمقته ، كمقتي لهذه المحاريب ، التي تهددنا بالموت والزوال .. وهذا المالح الذي ابتلع ساقي ، وترك لي العجز وقلة الحيلة والهوان . قالها فواز :
" لقد عَلِمْنَا من التجار ، أن سالم قد أطاح بأخيه ولي الدين ، وخلعه من أعراف القبيلة ، بعد أن عشقَ الكرمية ، وأصبح هو الشريف الجديد للأشراف ، وأنا أعرف يا أخي مقدار ما يُكنُّه لنا سالم من عداء قديم ، فضلاً عن ميوله العدوانية الموحشة ، كحبه إراقة الدماء ، والفتك والتخريب والدمار ، وفيما أكد سعدون الموالدي ، الذي سمعه بأذنه وهو يتوعد الكرمة ، ويهيل عليها من غضبه وبطشه لعنات ولعنات .. قال ، " سأريهم كيف يصير المالح أمواجاً من الدماء " .

وهنا دعا فواز رجاله ، بسرعة بناء أوكار جديدة بالكرمة ، ليقيموا فيها . أما رباح فقد نصبتْ لها وكرين ، أحدهما للإعاشة .. والآخر ، جعلت منه ماخوراً لساهري الليل والندماء ، وجعلتْ سعدون يمارس هوايته القديمة ، في الرهانات ، والورقات الثلاث .. فيما فوضتْ إليه جانباً من العمل فيه ، ذلك الماخور ، الذي شابه حانة (دردوش) الساقي ، إلي حدٍ بعيدٍ، في بلدة (الدراويش) . لم يمنعها زوجها من ممارسة عادتها القديمة ، ومعاودة الرقص مرة أخري ، بعد أن هددته بما تعرف عنه من أسرار تطيح به إلي الأرض السابعة ، وتهز ملكه الذي صنعه بالكذب والحيلة والخداع وسط الكرمة .. قالت :
" أدعوك يا بكر .. يا سيد الوادي ، وحامي الديار الكرمية ، بالجلوس كل ليلة لتأتنس بالدفء والمخالطة والاسترواح مع الرجال .. هذا خير من دوامك مع الراوي العجوز ، الذي أصاب شبابك بالضمور ، وأثقل كاهلك بحكاياته القديمة " .

صارت الكرمة إلي ما صارت إليه ، في تلك الأمسية الملتهبة ، نظر (شويح) إلي الجبل .. رأي الغربان ، تحوِّم من فوقه في دوائر مغلقة .. تري ، ما سر عودتك بعد هذه السنوات الطويلة يا سعدون ؟ .. هل ستعمرُ بك الكرمة بعد فوات الرجال .. وما سر ارتباط ظهورك ، بكل ما لا يحمد عقباه في هذا الوادي ؟ .. تأمَّل الراوي البناية المظلمة ، التي عششتْ في أركانها الخفافيش .. كانت نار المشعل التي أوقدتها رباح تنتصر لحيزٍ بعيدٍ في الظلام .. اقترب

الراوي من البناية ، وعلى واجهة خشبية مُهْلَكَة ، جرت دموعه حارة على أحرفٍ باهتة متربة هي (دار الحكمة والعدل) .

الآن فقط يُعذَّب (شويح) بسرِّك يا جسَّاس البحر .. ويعذب بأمانتك يا ابن سالم .. ويعذب بغيابك يا ابن نعمان .. ويعذب بعنادك يا ابن ضاحية .. ويعذب بنارك الموقدة يا ابنة الغجر .. ويعذب بقلة حيلته وهوانه . مشي بمحاذاة الجبل ، حتى ساقته قدماه إلي طريق ، لم يكن غريباً عليه ، غير أنه أصبح حوشياً مؤلماً .. اقتربَ من المُصلَّي القديمة ، التي باتتْ ركاماً وأطلالاً تحت صخور محاريب الجبل المندك . قال :
" هل من بانٍ آخر لكِ يا من جمعْتِ الأنيسين ؟ .. ألا من مقيمٍ جديد لشعائر الدين ؟! .. ألا من موقظٍ آخر لضمير هذا الوادي السحيق ؟ .. رحم الله الأخيار " .
* * *

-40-
لم يكن يعلم شويح الراوي أن فوازاً ورجاله قد اتخذوا من المُصلَّي ، التي باتتْ مهجورة ، وكراً لتدابيرهم في الظلام ، وبعيداً عن أعين الناس .. اتخذ موضعه ، متخفياً خلف الصخور المتراكمة ، بعد أن شعر بوطء أقدام تقترب من الناحية الخلفية للجبل ، حيث جلس نفرٌ من رجال فواز ينتظرونه ، وقد راحوا يتبادلون أطراف الحديث بينهم ، ناقمين علي ابن رابحة ، الذي منح لأعرج مثلي ، كل الصلاحيات في الوادي ..
" تري ماذا يخبئ فواز في جعبته لنا ؟! ..
قالها شويح ، فيما أفاد أحدهم بأنه يدبر لي ، بعد أن أصنع أسطولاً من القوارب الجديدة ، وبأني لا أُمثل لهم أكثر من طريقٍ لعودتهم إلي الكرمة .. أما الأمر فيها والنهي ، فإنه يظل لفواز ، المدبر والمحرك لقراراتي ؛ فيما يختص بالمالح ، والجبل . هذا في نظر الكرمة يمحو الشكوك حول نوايا الملاعين ، ويرد عنهم كيد نساء الكرمة من العجائز ، فلا يتصدين لهم بالكتابة والتعاويذ والسحر ، وما هن ماهرات فيه ، كالتفريق والأعمال الشيطانية .

ما كان ذلك الكلام يطن في أذن الراوي بطنين جديد ، فقد أحسه ، واستشعره منذ اللحظة الأولي التي تسلل فيها فواز إلي قلبي .. الآن تضطرك الأيام لنقض عهدك مع المُعلم ابن سالم يا شويح .. لأجل ابن ضاحية ، ستعلن السر ، الذي حاولتَ أن تخفيه أعواماً طويلة . هذا الحِمْلُ الثقيل الذي انتقل من الزين إلي ابن سالم ، ثم إلي شويح الضعيف .. فالحي أبقي يا ابنَ الزين ، والباقي حي ، وفوق كل ذي علم عليم .

جلستْ زهيرة لحالها ، في ركن الوكر المظلم ، تتأمل الأشياء التي كانت تحركها بدور بيدها .. جذبتْ الصندوق الرابض في حضن الأريكة ، التي كانت تنام عليها .. كان به شعور باليتم الأكيد ؛ وهي تري ملابس ابنتها ، وحاجياتها المنهزمة في استسلام . راحت تبكي ، وهي

تخرج من هيئة امرأة جامدة إلي هيئة أخري ، تتهدل ضعفاً ومسكنة .. لم تشفع عندها زيارات العجائز المتوالية ليل نهار ، برغم الأيام الأربعين التي مرت على غياب البنت .. البنت التي أخذت هيبة أبيها ، وخلفت وراءها وهن أمها .

رأيتُ أن أتخلَّصَ من كل ما يعيقني في البحث عن الغائبين .. ولأجل كشف أسرار مكامنهم البعيدة الغامضة . عاونني سعدون بوازع من الغجرية .. جلب لي ساقاً خشبية ، أحضرها خصيصاً من أجل أن أتحرك بها بيسر . دسسْتُ عظام ساقي الضامرة في التجويف الخشبي .. رحتُ أتوكأ بها كطفلٍ يخطو لأول مرة .. أحسستُ أنها مع الوقت ، ستكون أفضل بكثيرٍ من هذه العكاكيز السمجة ، التي استهلكتني طويلاً . ومن أقصي ارتفاع بيدي ، رحتُ أطوِّح العكاكيز في المالح ؛ كأنما أودِّع معها شعوراً بالموت . نظرتُ .. كان الرجال يلتفون من حولي ، يتصدرهم فواز ، الذي ارتدي عباءة الشيخ ، وراح يمكر تحتها ، باسم كل مقدس وعزيز .

أسوأ من السيئ أن نظل في انتظار الأشراف ، ليبطشوا بنا ليلاً أو نهاراً ؛ سراً أو جهاراً .. لقد ثأر الأشراف منا ، بما هو أعظم من إراقة الدماء . تنبه فواز دون أن ينبس .. تحرك سعدون .. قال لشد ما ثأر الأشراف من الكرمة ، حين دبروا لضاحيتها العزيزة ، وألقوا بها في المجهول الذي لم ندركه حتى الآن ، ولشد ما ثأروا منَّا ، حين نال شريفهم من عذرائنا الكرمية ، ولشد ثأرهم منَّا ، حين أفلحوا في اتساع رقعة الخوف في نفوسنا كل هذه السنوات .

لا نامت عيونهم أبداً .. لابد من حرق ساحاتهم الخضراء .. إغراق زراعتهم .. تسميم أغنامهم ومواشيهم التي يتقوتون منها .. لابد أن يعلم كل شريف من أشرافهم ، أن الكرميَّ، ليس فريسة قريبة المنال من أقواسهم المشدودة . تحرَّك سعدون متململاً، فيما هزَّ فواز رأسه استجابة لخاطرى ، كأنما حدَّث نفسه ، بأن بكر ابن الزين الجساس ، الذي كان وديعاً باسماً، قد تبدَّل إلي النقيض تماماً، ولم يعد كسابق عهده بي .. لقد تبدَّل فتي الكرمة ، وأصبح يلوك بأضراسه الخراب والشر ، كألذ طعام في فم جائع شرهٍ .

كان المجلس في (الماخور) الذي أنشأته الغجرية في الكرمة ، وقد راحتْ تتحرَّك بين الرجال الذين جلسوا وائتنسوا بها ، وبشخاليلها التي لم يسمعوا مثلها من قبل . ارقصي يا رباح لنا .. ما أجمل خطوكِ الرنَّان .. كأننا نولد من جديد على رنة الخلاخيل .. نشعر من جديد .. نستدفئ إناثنا من جدِيد .. لقد أسريتِ بنا يا ربة الحظ والدلال .. ويا نافذة البهجة ، التي صرنا نطل منها على أفراحنا .

تدلَّلَتْ رباح بمكرها .. قالتْ بأن الأمر لا يسلم من تضحيتكم يا زبائن الماخور ، ثمناً للمنادمة . قالتها بخلاعة وانحلال ، وأحسها الراوي ، الذي أخذ ركناً بعيداً يترقب عودتي . علم أن

الغجرية تمارس هوايتها الأولي .. ابتزاز المورد لأجل المقايضة عليه ، بعزم الرجال ، وتصفية الطاقات ، وقتل المروءة والبراءة ، ونشر الفساد .. حتى أنت يا شيخ رفاعي ! أصبحتَ مديناً لها بالامتنان والقربى .. تركتَ صفوانة امرأتك للتعاويذ والسحر ، واعتدتَ جوار الغجرية ، لا تبرأ من سكرك وغياب عقلك .

* * *

-41-

أخيراً خرجت نرجس عن صمتها ، صرخت في وجه أبيها العائد من أمسيات الغجرية :

" لقد أسرفتَ في شيخوختك يا أبي .. هذه التي أضاف إليها البشير عزّاً ووقاراً " .

ضحك رفاعي بملء فمه ساخراً :

" الآن يا ابنة صفوانة أصبحتِ تتندرين باسم البشير وصنيعه .. أليس هو مَنْ أذقتهِ مرارة كأس اللوعة والأسى والحرمانَ " .

دمعتْ عينها ، وهي تقود أباها الذي راح يتطوَّحُ، حتى وصل إلي الوكر ، وهناك كان شويح الراوي في انتظاره لأمرٍ شقَّ عليه الاحتفاظ به في قريحتهِ، قريحته التي باتت تؤلمه بما تحوي من سرٍ عظيم . قال :

" رغم أسرك في أغلال الغجرية يا رفاعي ؛ إلا أنك الوحيد الذي يمكن أن يقاسمني نفسي الآن " .

أمر الراوي نرجس بحضور الجلسة ، فيما انشغلتْ صفوانة ، بعقد جلستها المعتادة بالوكر لتدبير جديد .. ومع مرور اللحظات الثقال بدأ رفاعي في استفاقته واسترداد نفسه من قيود الغجرية .. وبدا الثالوث على سطح الرغبة الأكيدة ، في الكشف عما يكنه الراوي في نفسه .. قال :

" يا رفاعي ، لقد جئتك بعدما عزَّ الصاحب والرفيق ، وعظمتْ عليَّ أمور الدنيا .. الآن أبرئ ذمتي ، وأقص عليكما خبر (البشير نعمان)، الذي غاب عن (الكرمة) بعد أن عثر على وصية أبيه تحت صخور جبل الوادي ، التي أهلكت سلطان بن سالم في مصلاته .

ما علمنا أن للبشير أباً وسط عشائرنا يا شويح .. هكذا بادر رفاعي ، فيما استُثيرتْ ابنته ، التي اعتدلتْ في جلستها إلي جوار الراوي .. تساءلت :

" ومن يكون أب البشير ، ومن هو نعمان هذا ؟! "

" إنه الزين .. الزين الجساس " .

استرسل شويح بعد أن أفاق رفاعي وابنته من صدمة المفاجأة ، راوياً :

" أنجبه من امرأة، في رحلته خارج الكرمة ، في أعقاب إغارة الغلمان على أشراف بني حميد . فاتجه قاصداً التاجر الحضري ؛ الذي حمل إليه رسالة صديقه ابن سالم المُعلم .. وهناك استقر الزين مع التاجر ، قرابة خمسة عشر عاماً ؛ أقام خلالها بإحدي ضواحي بلدة تجارية تدعي (الحواشين)، ولما اتسعت تجارته ، راح التجار يكيدون له بشتى طرائقهم ،

للخلاص من ذلك البدوي ، الذي بات يهدد مكاسبهم . أجمعوا كيدهم ، وأشاعوا عن علاقة الزين بالمرأة التي سكن في حجرة من بيتها القديم .. ليس فقط ، بل شهَّروا بهما ؛ وهذا ما لا يمكن أن يمر بسلام ، في الأسواق الحضرية المتناحرة ، حتى حدث ما حدث ؛ أن أشارتْ إليه المرأة ، وتدعي (فضيلة)، بأن يرحل من البيت ، ويبحث عن مثوى آخر له . استجاب الزين بلا حول .. فيما ظلَّتْ تتابعه عن بعد ، وتتقصَّي أخباره المتواترة ، فتقدم له يد العون بكل ما تملك ، في غفلةٍ عن أعين تجار الحواشين ، حتى استطاع شراء مدبغة قديمة ، أشارتْ إليه المرأة بشرائها ؛ فعمل الزين على إصلاحها وتحديثها ، غير أنه أبقي على بعض قدامى العاملين فيها ، كان من بينهم ذلك الرجل الأحدب الصامت الذي يدعي (نعمان) الدباغ ؛ وكان أقدم العاملين فيها . لم يكن الزين حينها على دراية بصناعة مثل الدباغة .. فأحسَّ في بادئ الأمر أن فضيلة أرادتْ مع التجار أن تقصيه بعيداً عن ساح (الحواشين)، بصناعة ليس لديه دراية أو دربة بها . أما نعمان الدبَّاغ فكان أشد الكارهين لأن تباع المدبغة للزين ، أو لغيره ، فقد أفني فيها زهرة شبابه ، وهو ما يجعله يغار عليها ، ويتمني أن لو صار مالكها حتي لو كلفه الأمر أن يموت فداء رغبته فيها . أخذ (نعمان) جانباً مثله مثل باقي عمال المدبغة ، يتحرك ببطء وتكاسل ، ويتكلم بصوت عالٍ غير مكترث بالمشكلات التي باتت تواجه الزين من تجار (الحواشين)، وأصحاب المدابغ الأخري . كانا دائمي النظر كل في عين الآخر ، الزين ونعمان الدباغ ؛ حتى أشار أحد العمال للزين ، بمقدار الأذى الواقع بذلك الرجل ؛ حيث أنه قد ابتلي في ماله الذي كان ينوي أن يشتري به هذه المدبغة من صاحبها . أرسل الزين في طلب (نعمان) الدباغ .. عرض عليه أن يتولَّى شؤون المدبغة ، ويقوم بإدارة أعمالها ، في أيام التداول ، وعقد الجديد من الصفقات ، التي بمقتضاها يضطر الزين للغياب مسافراً لأسابيع عديدة . كان ذلك بمثابة إرضاء لخاطر (نعمان) ؛ وهو ما حمَّلَهُ أمانة في عنقه ، وظل يتفانى في العمل لصالح الزين . أما الآخر فقد استطاع بهذا الفعل أن يشتري ود (نعمان) وأن يستفيد من خبراته ، فيما انعكس أثر ذلك على تعاظم حركة العمل ، فكان للمدبغة شأن وصيت ، ازدادتْ معهما علاقة الزين ونعمان تماسكاً وقوة . كان على الزين بعد كل خطوة أن يدين بالوفاء والعرفان لفضيلة .. فطلبها للزواج فاستجابتْ .. كان يعلم وقع هذا الزواج على قلب تجار ودبَّاغي (الحواشين)، الذين كانوا قد أشاعوا وجود علاقة بينهما ، فيما وصفوا الزين بالغريب الخائن ، في محاولة للنيل منه ، والقضاء على كل ما حققه في (الحواشين) من مكاسب ، فراحوا يكيدون ، ويتربَّصون له ، حتى تجسَّدتْ له كراهيتهم ، فكان الحريق الهائل الذي التهم المدبغة ، دون غيرها . أحس الزين أن كل ما حققه خارج الكرمة قد ضاع هباء بين مخالب النار ، التي خلفت رمادها قلباً وعقلاً وروحاً وجسداً بلا أمل ، وسيطر عليه إحساس بأن لعنة الكرمة ما تزال تلاحقه في كل مكان .. بات ليال طويلة ، وشبح الهزيمة يلاحقه ، وظل منطوياً بائساً، حتى أصيب بثقلٍ في لسانه . في ذلك الوقت الذي أحس فيه أنه مرفوض وسط مجتمع (الحواشين)، عادت المرأة مرة أخري ، لتشحذ فيه الهمة ، وتجدد فيه الإحساس بالعزيمة والأمل . أنجبت له (فضيلة) بعد ذلك ولداً، وفي أحد الأيام سافر الزين في رحلة

للاتجَار استغرقتْ عدة أسابيع بعيداً عن زوجته وولده ، فلما عاد منها ، لم يجد من بيته سوي أطلال مهدمة ، فصدمه هول ما رأي وسمع من الناس ، وما أصاب البلدة ، أعقاب الزلزال المدمر ، الذي جعل عاليها سافلها ، وهوت كل بيوتات البلدة علي ساكنيها ليلاً . تأكد أن زوجته وولده قد ماتا .. وأن بقاءه بات مستحيلاً بتلك الناحية ، فقرر العودة إلي الوادي مرة أخري بعد أن أصابه ما أصابه من مرارة وأسي .

واصل الراوي حديثه الذي أثار فضول رفاعي ونرجس للسؤال عن الزوجة وولدها ، استرسل راوياً :
" أما الزوجة فقد ماتت تحت أنقاض البيت ، والولد فقد انتشله من بين الأنقاض (نعمان) الدباغ ، وفر به مع أبنائه إلي قرية أخري بمحاذاة البحر ؛ كانت أكثر أمناً، فتجمع بها المهاجرون من كل مكان ، بيد أن (الدباغ)، ظل يتردد علي (الحواشين) وبيوتاتها المهدمة من حين لآخر لعله يجد طرفاً من ريح الزين ، أو ما يدل عليه .. وبينما كان (الدباغ) يعسُّ وسط بقايا الأنقاض ؛ إذ عثر على لوحٍ مخطوط عليه نص الرسالة التي كان قد كتبها (ابن سالم) وحملها الزين للتاجر ، الذي كان قد عمل معه في البداية .. ولمَّا فشل (نعمان) في العثور على الزين ؛ تكفَّل بتربية الطفل الصغير ، وسط خمسة من أبنائه ، وأسماه (البشير)، وأعطاه اسمه فصار (البشير نعمان) .. وكبر في كنفه .. جاب البحار ، وعارك أساطينها وقراصنتها مع خفر السواحل ، حتى تسلَّم البشير الرسالة من الدباغ ، الذي حكي له ما جري في (الحوَّاشين) .. لتبدأ رحلة (ابن نعمان البشير) في البحث عن أبيه في هذا الوادي الذي ذكرته الرسالة ، حيث نزل ضيفاً على كل عشيرة من عشائره ، التي تطل على ساحل البحر ، حتى صار مثلاً يُحتذي ، في الشجاعة والإنصاف والحكمة والعدل . ذلك هو البشير ، الذي انهي رحلة بحثه عن أبيه بقبيلتي (الكرمة) و(بني حميد)، واطلع إلي أحوالهم ، وما آلت إليه كل قبيلة من أخطار تهددها . قيل أنه كان يقيم في كل عشيرة داراً للحكمة والعدل ، ويُنَصِّبُ شيوخَهَا قضاة ، ويقضي على مجالس النساء والعجائز ، ويبث في عروق الغلمان الحمية والاعتداد . كان شغوفاً لأن يحقق من كل عشائر الوادي ، قوة واحدة تستطيع مواجهة المالح ، ومحاريب الجبل ، والملاعين .. بيد أن الخلاف بين بني حميد و الكرمة بات محتدماً، ولا أمل في إيقاف بحور الدم إلا بعودته من جديد .
تساءلتْ نرجس حول اختفائه .. أكدَ الراوي أنه في وادي (إكباش)، ومعه بعض خفراء الساحل القدامى ، وهو يعلم تماماً، ما آلتْ إليه الكرمة وبني حميد من ترد وسوء وفساد ، وما أحاط بابن أبيه ، بكر الزين من غشاوة وضلال .. لكنه يتحيَّنُ الفرصة ، ليعود مُبَرَّئاً مما أحيط به من شائعات، أوعزَ بها فواز إلي الكرمة كلها ، وبعد أن تثمر محاولات رفيقه (ذي الفقار) في التوصل لخيطٍ يدل على حقيقة اختفاء ضاحية .
بكت نرجس .. كانت دموعها أغزر من بلاغة كلام شويح ، قالت كيف يتوعد بكر أخاه البشير بالقتل ويصمه بالخيانة ؟! لابد أن تتكشَّف بواطن الأمور له ، حتى يدرك من هو البشير ،

ويفيق من تأثير (ابن رابحة) عليه . آه .. ماذا تخبئ لنا في طوياك الرهيبة أيها المالح ؟ زفر شويح الراوي .. قال :
" لشد ما أخشى أن تأتي شمس جديدة ، دون أن يعود البشير ، ليضع حداً، لما آلت إليه الكرمة في غيابه على يد هؤلاء الملاعين " .

الآن أفرغتُ ما في نفسي لكما خشية أن أهلك ، فيموت السرُّ معي ، ويفشل البشير في إقناع أخيه ، الذي لم يعد كسابق عهدنا به .. أما الرسالة ، فإنها الشاهد الوحيد على صدق ما قلت ، وعلى تأكيد الحقيقة التي لا هروب منها ، وهي في مكمني ، وتحت رأس ابن الزين ، ولكنه لم يعد يسمع أو يري ؛ غير شحيح فواز ، وفحيح سعدون ، وشخاليل الغجرية .

عرف البشير الحقيقة كلها على حياة عين الزين ، الذي تنفس الصعداء قبل أن تصعد روحه ، بغبطة العثور على ولده ، الذي ظن أنه مات مع أمه تحت الأنقاض في (الحواشين)، ولم يمهله الوقت كي يعترف لضاحية بثمرة زواجه الأول .
* * *

-42-
كانت ظهيرة اليوم التالي ؛ وشمسها الطاغية على ظهر كل وكر ، تشي بحركة جديدة ، وإحساس آخر بالقلق والاحتراز من جانب فواز .. كان يتأمل الدار التي بناها البشير في طريقه إلي ماخور امرأته بتملق ونفور . كل ما كان يدور في عقله ، هو ما ساوره من شكوكٍ، بشأن الموالدي سعدون .. لماذا وطئت قدمه الوادي في هذا الوقت ضارباً بالعهود عرض الحائط ؟!

هكذا ندب فواز حظه العسر ، في مواجهة الدار المهجورة ، وتركها متجهاً إلي امرأته ، وهناك رأي (سعدون) ورآها في ثياب زاهية جديدة . بدا له كأنهما يتآمران عليه .. قال بفحيح غير مسموع :
" لا أشك في خيانتك يا رباح ، ولا أشك في نذالتك يا سعدون .. أنتما من مادة رخيصة واحدة .. أتري عرفتْ رباح منك خبر ضاحية يا ابن الموالدي .. ما أسوأ أن يقف المرء موقفاً ضعيفاً، بين يديَ امرأة غجرية و رجلٍ سفيه " .

امتلأ الماخور عن آخره برجال فواز .. لم تكن الجلسة الأولي بحضرة رباح ، بل أن سابقاتها على مدي قرابة الأسابيع الثلاثة ، التي مضتْ على إنشائه ، قد شهدت إعداد الرجال لخوض منازلة أشراف بني حميد على سفح الجبل .. تلك المنازلة التي وصفتُها بأنها ستكون الفاصلة . أما فواز فقد قرر أن يقتلني فيها ، ويقتل سعدون بسلاح أحد أعوانه المقربين .. قالها في نفسه وتردد صداها في نفسي :

" سيكون النصر الحقيقي لي على أشراف بني حميد هو قتل بكر ابن الزين الجساس ، واسترداد الزعامة منه ، والفوز بعذراء البوادي بدور ؛ بعد أن أكون قد فزت بقوارب ، أشد قوَّة ، أواجه بها المالح ، والأيام القادمة " .
تبسَّم (فواز) في وجه الجميع .. شرب نخب إعداد الرجال ، مواراياً كيده العظيم ، الذي يحمله في صدره للكرمة كلها .. رقص بعصاه ، ورقصتْ رباح ، وعلت الشخاليل سماء الوادي ، واتخذ سعدون ركناً يتأمل منه العرائس الخشبية ، وهي تتلوى ، وتتحرك بنظراتٍ مغلولةٍ موحشة .
وكما يدبِّرُ الذئبُ لفريسته ، تدبر الفريسة للذئب .. لاسيما وأن الفريسة ، ثعبان يتلوى بألف ألف رأسٍ، أو أفعوان عنيد في قرار ظلمات البحر السحيقة ؛ كسعدون الموالدي ، الذي أوعزتْ له رباح بقتل زوجها ، قالت :
" لن يطهرك من ذنوبك غير الموت يا أبا العيال .. بعد أن عشقتَ ابنة زهيرة ، وأرسلتَ من يقتلون أنفسهم بحثاً عنها في الوديان والعشائر المجاورة ، من أجلك أنت لا من أجل بكر بن الزين ، المأسور بقدرتك الفائقة ، على النفاذ إلي قلبه الغض الجريح ، أنت تعلم يا ابن رابحة ؛ مقدار ما أكنِّهُ لك من عشق .. وآهٍ من عشق الغجريات ، عشق العناكب والعقارب في حواكير الجبل .. عشق مميت ، كلحظة امتزاج جسدينا ، في حجرة سحيقة داخل حانة (دردوش) الساقي ، وهناك اعتصرتك بين لحمي ودمي وروحي ، وهيأت لك مسالك لم يطأها غيرك ، وأقسمت حينها أنك لن تضل إلي رباح سبيلا .. إن بدور لم تهرب مع ولي الدين ، كما أشيع في الكرمة ؛ لأن عيونك في بني حميد لابد أنهم أخبروك ، أن سالم ، قد طغي وتجبر ؛ وألقي بأخيه الشريف ، في سجن من سجون الأرض ، ليأمن على خلافته الجديدة .. نعم ، هذه هي الحقيقة التي من أجلها ، لابد أن تموت يا ابن الكسيحة " .
بهذه الكلمات تحرك لسان الغجرية من كيدها ، في وجه أخيها سعدون ، وهو يستعذب مقالها في زوجها . شرب فواز حتى ثمل .. صاح في وجه الرجال الجالسين .. قال بإمرتي وحدي ، تستعيدون قوتكم وبأسكم على أشراف بني حميد يا رجال الوادي .. زام الموالدي وتبسَّم ، ولم ينبس بكلمة واحدة ، غير أن الرجال بدأوا ينفضُّون من حوله رجلاً بعد آخر . فرغتْ الحانة إلا من الثالوث .. فيما كان حمدون وفرحة يلعبان عند بئر الجبل القريب من الحانة ، وركبتُ أنا ساقي ومضيتُ .
* * *

-43-
إلي أين تذهبُ بي قدمي .. إلي وكر شويح الراوي ، أم إلي وكر أمي ، أم إلي وكر عمي ، أم إلي نفسي الضائعة بين المالح والجبل .. أي الطرق تؤدي إلي أين يا ابن ضاحية ؟! . هكذا سبحتْ الخيالات في رأسي ، وأنا أنظر نظرة بعيدة إلي ساحل البحر ، الخالي تماماً إلا من القوارب التي صنعتها بيدي لفواز وأعوانه . كان الماء يتلألأ ، والأمواج هادئة ، مستسلمة

لموات باد، كأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة .. تلك العاصفة المميتة ، التي لن ترحم ، ولن تترك فوق رمالٍ الوادي ديارا ولا أوكارا ولا مكامن .. قالها سعدون في حنقٍ لاخته :
" علينا يا ابنة أم ، أن نشد رحالنا من هذا الوادي الكئيب .. أعدِّي عيالك ، للعودة إلي البيت الكبير .. هناك متسع لتتنفس فرحة ويكبر حمدون .. هناك الموالد والأقوات ، التي زالت هنا من الوجوه الكئيبة .. أي مصير ينتظرك يا أختاه ، في هذه البقعة المنذورة للفناء والعدم ، تحت ظل فواز ، الذي عدم حيلته ، في أن يضمن لكِ عيشاً هنيئاً، ولم يجلب لكم غير الشقاء والحرمان والخوف من المجهول " .
كان الموالدي يعلم وقع هذا الحديث على فواز ، الذي جلس مخموراً، يتسمَّعُ سياط (سعدون)، قال :
" لن ألومك يا ابن الغجر .. أنت محقٌّ كالرجال .. أما كلمتي ، فسوف ألقيها بأعلى صوت من فوق قمة هذا الجبل المتصدع ، في منازلتنا مع بني حميد ، وسوف تعرف الكرمة كلها في حينها ، من يكون فوازاً " .
سمعتْ الغجرية هرولة صغارها ، قادمين من ناحية البئر .. التقط حمدون أنفاسه ، قال :
" إن رجلاً شيخاً، يسأل عن الخال سعدون ، وقبل أن ندلَّه انقض عليه الراوي شويح ؛ وإذا به يعاركه ويضربه ويقول له : أنت الذي رافقت سعدون ، ليلة أن صعد الرجال الجبل ، لمنازلة الأشراف " .
انتفض الموالدي من مكانه ، وأفاق فواز من سكره ، فيما شهقت رباح شهقة طويلة ، ووضعتْ يدها على صدرها . نظر الموالدي لفواز ، وتساءلتْ رباح عن هذا الزائر الذي قصد أخيها بالذات . تمتم الموالدي ، وهو يجز على أسنانه غيظاً .. لابد أنه الغبي (دردوش) .. حذرته أن يطأ هذا الوادي . تحركتْ رباح تجاه زوجها .. سألته عن الزائر ، فقال والشرر يطق من عينيه :
" سلي المقصود بالزيارة " .
جري سعدون ، ومن خلفه فواز ناحية البئر ، فيما وقفتْ المرأة حائرة ، لا تعرف ما الذي يدور حولها . أما (دردوش) الساقي ، فقد أدلي بدلوه ، كلماتٍ ثقيلة على قلب الغريمين ، قبل أن يترك الوادي عائداً إلي الدراويش ، قال :
" يا سعدون .. إن الأمانة قد بَليتْ، وأنا لم أعد أقوي على احتمالها .. وقد جئتُ أخبركما أن ضاحية أنهكها المرض ، وإنني رجل جاوزت السبعين ؛ وبت أشفق عليها من مُصابها ومُصابي .. فمن كانت له وديعة عندي ، فليسرع في استردادها ، وكفاني ما أصابني من جرائها . عرف البشير أن ضاحية لا تزال على قيد الحياة ، وأنها في (الدراويش) ؛ بعد أن أرسل من يتقصَّي أخبارها من رفاقه ، ذلك الغريب الذي يدعي (ذا الفقار) . عرفت أنه رسول البشير ، للبحث عن المرأة .. إن الأيام تمضي ، وتزداد أعبائي عبئاً ثقيلاً .. لم أعد أقوى على حمله ، وقد رأيتما كيف استدل شويح عليَّ ؛ رغم ما حاولت أن أغيِّر به ملامحي ، متنكراً في ملابس الصيادين " .

تبادل الغريمان نظرات مريبة ، أحسا بالخطر الذي بات يهددهما من شويح ؛ بعد أن عرف من (دردوش) حقيقة ضاحية ، قال فواز :
" إن الراوي لن يسكت ، ونحن في أمسّ الحاجة للهدوء قبل نزالنا مع الأشراف .. سيزرع شويح الفتنة بيننا وبين بكر يا سعدون ، وسوف يحركه ذلك نحو الانقلاب علينا في المعركة ؛ بعد أن أصبح له من بيننا رجال أقوياء يطيعونه ، ويتحركون رهن إشارته " .
ظاهر سعدون فوازاً، وتركه عند البئر ، ومشي تجاه الماخور ، وهناك كان على موعد مع نفر من بطانته المقربين .. حذَّرهم من أن تشرق شمس جديدة على شويح الراوي ، قال أحدهم :
" إن الأمر يشقُّ علينا ؛ وبكر الزين يحيا برفقته في المكمن ، ولا يبرحه طوال الليل " .
ردد سعدون :
" لابد أن نتخلص منه ، بعد أن عرف عنَّا كل شيء ، وبات يهدد أيامنا وأحلامنا " .

فطن الراوي بحاسته إلي أن الأمر لن يخلو من كيد فواز وسعدون له ، فحمل بقجته ليلاً، وتسرَّبَ إلي خارج الكرمة خائفاً، من أفعوانات الليل ومفاجآته ؛ قاصداً أشراف بني حميد ، ومودعاً الأضواء الشحيحة البعيدة المترامية ، التي كانت هي آخر ما تحرَّك في عينه ، وتخلص منها بدمعة ساخنة سقطتْ على الرمال . وأثناء سيره ، دعا لشريط الذكريات الحزينة بالكرمة أن يمر بطيئاً موحشاً على مخيلته ؛ متذكراً الزين وابنه الجساس الصغير ، وضاحية ، وسلطان بن سالم والبشير وبدور ، وولي الدين ؛ وأيام المالح ، وأحداث الوادي الملعون .
* * *

-44-
أضاء العجائز وكرهن لليالٍ طوال ، كن يبحثن أمر بدور ، التي ذهبتْ، تاركة وراءها ضعف فياض وهوان زهيرة ، وما تهامَسَتْ به الكرمة بشأن ضاحية ، واقتراب عودة البشير نعمان ؛ الذي تكرر ذكر اسمه ، في أرجاء الوادي من جديد ، عن طريق تجار الحضر ، الذين رأوه وتسمَّعوا أخباره في جزيرة وادي إكباش .

علمنا أنه بصحبة رفاقه القدامى من خفر السواحل ، الذين قضي بهم علي الملاعين ، وأنهم مازالوا ينقبون عن أثر القوارب الغارقة ، ويحاولون الاقتراب من بطن المالح ، غير أن البشير لم يكن بعيداً عن أحداث الوادي ، وما يجري في الكرمة من دموع وأحزان . تنبَّهَتْ العجائزُ لأمر ، سوف يكون له أكبر الأثر ، فيما يعيد ترتيب الكرمة من جديد . أما بدور الكرمية ؛ فكانت الشيء الوحيد ، الذي يؤرق المجلس ؛ بعد أن علم الجميع في الوادي ، أن ولي الدين لم يهرب بها ، وأنه في سجن من سجون أخيه سالم ، الذي صار الشريف الجديد لبني حميد . هذا الأمر الذي أفقد زهيرة قدرتها على الاتزان ، ففقدتْ رشدها ورشادها ، وأصبح فياضاً، لا يحرِّ

إجابة ، أو ينطق بكلمة ، كأنه وضع نفسه في سجنٍ الصمت ، فقط يتحرك تجاه القوارب الجديدة على الساحل ، ويظل يتأمل ديار الكرمة من بعيد ، كأنما فقد قدرته على كل شيء .. إلا أن يبحر في دواماته السحيقة .

لقد شابه أخاه الزين ، وباتت نظرته كنظرة الجساس وسلطان بن سالم سواء .. بعد أن زهد في كل شيء . كانت بدور زاده ورؤاه ، كما كانت عقل أمها ورشادها ، بيد أن الوشم لا يزال ينتظرها ، ولا صوت يعلو فوق صوت التقاليد والأعراف ، المتوارثة منذ مئات السنين . كذلك علمت نرجس ما حدث داخل وكر العجائز من أمها .. ولطالما ظلت تتألم لمصاب زهيرة وفياض ، غير أن بدور قطعتْ عليها عهداً، بأن لا يعرف أحد مكانها الذي تتواري فيه .

راحت نرجس تتسلل ليلاً بالزاد من الحليب والتمر إلي دار الحكمة .. حيث تأوي بدور إلي وحدتها التي جاوزت يومها الأربعين .. وحدها لا تدخل عليها غير نرجس بمفردها ، وبعد أن تتأكد الأخرى أن الكرمة كلها عن بكرة أبيها ، راحت في سبات عميق ؛ حتى ماخور رباح ، الذي يضاء لوقت متأخر من الليل . كان ألم بدور ولوعتها لفراق أبويها ، أخف وطأة مما أصابها من مصاب في بكر الزين ، الذي تبدل ، حتى صار غير رحيم ، وغير سويٍّ، وغير إنسان . قالت :
" يا نرجس إن قلبي يتحرق على ابن عمي ، ويتمزق على ولي الدين ، وينفطر لوعة وأسي على أمي وأبي . لكن عودتي فهي مثل السير في درب من دروب الضياع بين الأول والثاني ، تماماً كضياع أهل الكرمة بين محاريب الجبل والبحر " .
أحست نرجس أن بدور قد كبرت بعدد أيامها الأربعين سنوات .. قالت ، والألم يعتصرها ، بأن البشير حي ، وهو في جزيرة إكباش .. يتحين العودة ، بعد أن يعثر على مبتغاه فيها :
" يا بدور لن يطول بقاؤكِ بالدار ، وأنا مثلك ، أتألم ، وأزداد تحرقاً وشوقاً للأحباب " .

صمتت نرجس .. تذكرت كلام شويح الراوي بشأن إفضائه بسر الزين الجساس ، فعدلتْ عن ضعفها ، ولم تحدث به بدور .. غير أنها أقسمتْ أن تكون الأيام القادمة ، أكثر مدعاة لأن تعاش ، وأكثر جمالاً .
* * *

-45-
لم تكن قبيلة بني حميد ، في هذا الهزيع من الليل نائمة ، إن شيئاً من مصاب الكرمة قد أصاب جنباتها بجنون ؛ فدبَّ الأرق في عيونها ؛ كما هو الحال في عين كل كرمي .. كانت الأبصار شاخصة تجاه الجبل من هنا ومن هنا . في تلك الساعات المتأخرة أحاطتْ شويح الراوي رهبة ؛ فسَرَتْ في جسده قشعريرة ؛ أفقدته قدرته على المواصلة نحو الداخل ، رغم ما حاول أن يبديه من صلابة ؛ وهو يخطو بأقدام ثقيلة متقنة ، كأنها المهابة ، التي تبعث في

العيون احترام شيخٍ جليل ؛ حتى لو كان كرميَّاً . ووسط مشاعرٍ كهذه ، جاوز الراوي الحد الفاصل بين الكرمة وبني حميد . لم تكن المرة الأولي التي يتجاوز فيها ذلك الحد ، حينما كان رسول البشير إليهم ، في محاولاته المتعددة للوصول إلي صيغة سلام .. لكن الأشياء التي تتبدَّل وتتغير ، تصبح مدعاة للريبة والحذر في عيون الأتقياء . قالها شويح في دخيلته ، وهو يتأمل ديار الأشراف ، وينظر للبناية الكبيرة ، التي خصصتْ للشريف الجديد ؛ بعد أن أوقع بأخيه .

تري ما الذي تضمره في نفسك للكرمة يا سالم ؟ وهل تنفع معك شفعة بدور لأهلها ، كما سبق مع أخيك من قبل ؟ .. كيف استأسدتُم يا أشراف ، وكفرتم بكل ما حظيتم به من دعةٍ وسلام وأمن ؛ وبتم تطلبون ثأر الدم ، من كرمة بلا حياة . إنهم كذلك ينتظرونكم ، عند سفح جبل الوادي المنصرع كما تنتظرونهم .. يكيدون لكم وتكيدون لهم .. ألا من داعٍ فيكم إلي العدول ؟ ألا من داعٍ فيهم ؟ .. ألا من صيحةٍ، توقظ أفئدتكم من غفلتها ، وتوقظ أفئدتهم . قالها ، وهو يتوحد في ملامح البشير ، وفي عروقه تهدر أمواج المالح ، فتهزمه رغبة أكيدة للبكاء .

علمت الديار خبر الكرمي الغريب ، فتململ سالم ، قال الراوي :
" إن القوم ائتمروا يا أشراف ، وقد ائتمرتم ، وإني أبرئكم وأبرئهم من محاكاة الجهلاء ، والوقوع في شرك القطيعة والإثم . إن بحور الدم لن تنتهي ، وإن انتهيتم جميعاً فوق رمال هذا الوادى .
قالها مراراً وهو يتألم ، فيما أحاطته بطانة سالم بنظرات مريبة .. قال شريفهم للراوي :
- " لقد دأبتَ علي محاولاتك الخائبة ، ومازلت تكرِّرها جهلاً منك ومن الكرميين أمثالك ، بأن للأشراف كلمة لابد أنها الفاصلة ، تلك الكلمة التي سوف لا تستريحون لسماعها أبداً .. إن صمت الأشراف قد طال ، وحان الآن أن ترتفع أصواتهم في وجوه أراذلكم ، الذين تمادَوا في طغيانهم وتجبَّروا ، وإنه للقصاص العادل الذي فيه حياتنا ، وعسي أن نكره شيئاً يكون لنا فيه العزة والكبرياء ؛ بعد أن ضحكتْ بدور على شريفنا المخلوع من قبل .. بات لا يسمع إلا همسها ، ولا يرى غير وجهها .. غافلاً ثأرنا . فإن أردت أن تنزل ضيفاً علينا أيها الراوي ، فإن لك منزلةَ شريفٍ في الديار (الحميدية) كلها ، أما إن كنت رسولَ أهلكَ، فارجعْ إليهم بما حملتَ في رسالتك . قلْ لفواز وبكر الزين بأن موعدنا سفح الجبل ؛ الذي خَاب فوقه رجاؤنا في ولي الدين ، يوم الشفعة ، التي جلبتْ علينا العار والخراب .

فهم الراوي أنه لا جدوى من نصحه فتراجع ؛ وقد تكتَّمَ أمراً في نفسه ، عظيماً، يصعب على غلامٍ إدراكه .. هل يستطيع شويح العجوز لحاله ، أن ينجح في تخليص ولي الدين من سجنه ؛ هذا السجن الذي بات سجناً للكرمة كلها . لَكَمْ شابه ولي الدين ابن نعمان البشير ، وإن لم يتجدد عهد هذا الوادي بمثلهما بعد رحيل الأخيار ، فسوف لن تقام حياة أبداً، علي

هذه الرمال القاحلة الجرداء . لابد أن يتحدا معاً استشرافاً لدنيا جديدة ، قوامها الحكمة والرحمة والعدل .
* * *

-46-
يا وادي إكباش المهجور .. أفض علينا بالبشير .. لابد أنه لا يزال آخذاً بوصية أبيه الجساس ، بألا تغرب عينه عن ضاحية وولدها ما بقيَ حياً . أرسل عيونه في كل مكان بحثاً عنها ، تلك التي اتُّهِمَ فيها من قِبَلِ مجلس العجائز ، بإيعاز من الخائن وزوجته الغجرية .. أما بكر الزين ، فقد حُجبَتْ عنه روعة الأشياء ، ولم يعد يرقي لجس المالح ، أو يسمع الطيور في أعشاشها ، ولا الحيوانات في مكامنها وحواكيرها ، ولا أحياء المالح في قيعانها . كل شيء حُجِبَ عنه ، إلا وجه الشيطان ، ووساوس الموالدي ، وشخاليل الغجرية .

في ذلك الخُنِّ الضيِّق ، الذي خُصِّصَ لتعتيق الخمور ، في قاعة الحانة الضيقة بـ (الدراويش) .. رأي (دردوش) الساقي أن يرد الأمانة إلي أهلها ، رأفة بالمرأة ، التي استسلمتْ لمصابها .. كل الأشياء على غير ما يرام يا ضاحية الكرمة . تري هل تحقق لعينيك جلياً، ذلك الهاتف الذي ظل يراودك في حلمك ، فتفزعي ، كلما أغمض لك طرف يا امرأة الرجل الطيب .. هل عرفت الآن من يكون البشير نعمان ؟! .. هل أخبرك (دردوش) بما حدث في الوادي . إن شيئاً ما ، قد أحدث شرخاً في كل شيء هناك .. تري هل يعود البشير ، ليلقي بأحماله الثقيلة على صدر نرجس . بعد أن يأتي من بطن المالح بخبرٍ يقين .

ما الذي سوف يحدث عند التقاء وجه بدور بوجه بكر الزين ؛ الذي يصعد الجبل كل مساء ، ولم يعد يعرف البكاء ، عن غلظةٍ وجحود، أورثه إياهما فواز والموالدي والغجرية ، وملاعين جبل الوادي .. أعرف تماماً أنك معذبة مثل البشير يا ضاحية الكرمة .. أعرف أن قلبك محرَّقٌ وفكرك شارد ، وطرفك لا يرتد عائداً إليك، من خلال تلك الطاقة الضيقة المطلة إلي الخارج . عام مضي يا ساهرة الأعين ، وأنت تتسمَّعين الخلائق ، والعبيد المخمورين في الخارج .. وأنت تترقبين البشير على حصانه المارق ، يشقُّ هذه الجدر المقيتة ، ويأخذك إلي هناك . عام مضي وأنت لا أنت ، ولا الخلائق ، ولا البشير ؛ غير هذه الحانة التي تفوح من عتقها الخمور ، تتنفسين سخطها وغضبها ، وتترقبين ما لا يجيء حتى الصباح . هل عاد الساقي وامرأته لمجاورتك ، كما كانا يفعلان ؛ حين يعاني قلبك وتتألمين . قالها (دردوش) لامرأته العجوز ، وهو يطالع أمي ، من الطاقة من وقت لآخر :
" أشعر أن الأيام تسرع وتتلاحق .. وهي كما هي لم تهدأ ، ولم تسترح .. قائمة على ساقيها .. ناظرة من الطاقة .. داعية لهاتفها الذي يراودها .. آه من ذلك الهاتف المريب الغامض ، الذي بدأ يزورني في دوامات، هي أشبه بالموت المحلِّق فوق رأسي .. موت خطف ابننا الصغير يا امرأة .. وماذا بعد أن فقدنا أغلي ما عندنا في هذا الحياة ، وهل يمكن أن

يكون لشيخ عجوز مثلي حياة بعد أن بات مقطوع المداد والذكر .. لقد حان وقت الاعتراف يا امرأة بأني وهنت ، ولم أعد أستطيع اللحاق ، بغشاوة قلب سعدون وفواز .. سأطلق سراح ضاحية .. أغلق الحانة ، وأكفر عن كل ذنوبي هنا في (الدراويش) . رأيته .. نعم رأيته .. الوجه الذي وصفته لضاحية تماماً، وأقرَّتْ بأنه هو .. هو البشير .. وبعده رأيت ، فيما يشبه الحلم ، وليس بحلمٍ .. ذلك الشخص الذي قال إنه (ذو الفقار) .. وهو يتردد على الحانة ، ولم يتجرَّع مثل باقي الخلائق . أقرَّوا بأنه غريب عن (الدراويش)، ولم يبدُ عليه اعتياد الحانات أو المخامرة .. إنها الريبة والشكوك .. إنها الذنوب التي أسرفتُ فيها طيلة أيام صباي من سرقة وربا وتستر على جرائم .. باتت وكأنها أشباح تطاردني الآن . إن المالح يتهيأ لي ، وأنا لم أعد أقوى على مجاراة أحداثه ، كما كنت من قبل . ألف آه عليك يا ضاحية .. وألف آه عليّ ؛ بعد أن عرف البشير أنك هنا .. بحوزتي .. في هذا المستنقع الرطب الموحش الضيق الأثيم .

تسلل الراوي خلسة إلي سجن ولي الدين ، مستغلاً انشغال سالم بتلقين الأشراف خطة الهجوم على الكرمة .. وشارحاً منعطفات الجبل وسهوله وتلاله وهضابه ، نفس الأمر الذي يفعله تماماً بكر الزين وفواز وسعدون في ذات الوقت ؛ وكل يدبر تدبيره . انطلقت الأبواقُ معلنة النزال ثأراً وقصاصاً .. راح الراوي يهمس من طاقة السجن المنعزل ، الذي خصص لشريف الأشراف .. منادياً :
" الوقت لم يعد لنا يا ولي الدين .. إن البشير ينتظرك في إكباش .. أنت مخذول ومهان هنا يا ولدي ، فلا تهدر وقتاً يمكنك فيه أن تسترد حريتك .. اخرج مُحَطِّمَاً أسوارَك حيث الخلاء الذي تبرئ فيه نفسك من ذنب الكرمية ، ومن خطيئة فواز ، وجهالة بكر الزين " .
أدرك الشريف الطريق إلي الخارج ، بعد أن تقصي شويح أثر الحراس .. واختفيا خلف هضبة قديمة ، حتى نزلا منزلاً بعيداً آمناً، وهناك تحدد مسار كليهما .. حيث افترقا في صخب المنازلة الضروس ، التي تلوَّن سفح جبل الوادي إثرها بالدماء ، وامتصتْ الرمالُ الصفراء عروق فتيان العشيرتين .
* * *

-47-
تري أين اختفتْ بدور . إنها كَبُرَتْ بعرض المالح وطوله ، سنوات أثقل وأطول .. قالت صفوانة بأنها رأتْ المالح يأخذها إلي خضمِّه .. لقد ضمَّها إليه يا زهيرة . الآن يقدر البقاء لذكري البنت التي ظننا ظن السوء بها ؛ بعد أن رأينا وسمعنا عن فك أسر ولي الدين من سجنه ؛ وقمنا بالتعاويذ التي تدلنا على أن ابنتك في مكمن قديم يا فيَّاض ، مكمن ضيق ، لكنه في سعة البحر ؛ لا يعرف مكانها فيه ، غير جنِّيةٍ عذراء مثلها ، تشعر بمثل ما تشعر به من وحشه ، وتعاني ما تعانيه من أسي .

أين راحتْ براءتك الأولي يا ابن الزين ، يا جساس البحر ، ووريث أبيك في صناعته وهباته .. أما يكفيك ما سمعت بأذنيك لتعدل ، هل تبقَّي لديك من الشجون لتحزن بصدق على ما فات ؟! .. إن أمك لا تزال على قيد الحياة ؛ وأصبحتَ أخاً للبشير من أبيك ، الذي رحت تشتري عداوته ، وتمنِّي النفس والقلب بالقضاء عليه . نعم تلك هي الحقيقة التي سطرها الجساس الكبير بدموعه في الماضي .. الماضي الذي نام قرابة ربع قرن تحت وسادتك التي تحط عليها رأسك دون أن تشعر أو تعي .. هذه الأريكة التي باتت متهالكة ، والتي كان قد صنعها أبوك من سُدَّة الصلابة والمثابرة . ضع رأسك يا ابن الزين .. ضعها بقوة ، لعلك تذوق طعم الراحة التي ينعَم بها الرجل الطيب في ثراه .

هل بدأت الظنون تساورك في فواز مرة أخري ؟!، لكنك لا تزال تتهيب المالح ، كخشيتك من كل شيء . نعم البشير أخوك ؛ الذي أورثه أبوك وصية حفظك أنت وأمك ، أمك التي اختطفها الموالدي سعدون ، و(دردوش) الساقي ؛ ليلة أن شفعتْ بدور لقومها في النزال .. أمك التي أحستْ بفطنتها أن البشير ، يحمل رائحة أبيك ، وهامته وصلابته وصمته وحبه الجارف للمالح . لماذا تتأمل (دار الحكمة) ؛ بهذه النظرات العطوفة ، أهو كل ما استطعتَ أن تبديه لها يا ابن الجساس ؟! أليس بمقدورك أن تضيء وسط ظلامها قنديلاً ؛ لعلك إن فعلتها وجدت ابنة عمك ؛ تعيش بمفردها أوقات مليئة بالوحشة ، لفراقك عنك ؛ وفراق ولي الدين عنها . علمت رباح أن زوجها يمد أذرعته الأخطبوطية حول الجبل ، ويرسل عيونه في كل عشيرة ، بحثاً عن بدور . قالت لن أوثرك يا أبا العيال على كبريائي .. الآن تسعي إلي إغلاق الماخور .. إغلاق المسلسل القذر ، الذي لعبتَ فيه بطولتك المطلقة ، وأنت تسيطر على ابن ضاحية ؛ الذي صنع لك كل ما أردتَ، من قوارب جديدة ، لا تزال واقفة على الساحل بغير فائدة . هل نزلتَ المالح يا فواز ؟ . هل حفظت وعودك مع أخي سعدون .. هل وصلتَ ما انقطع بيننا ، منذ أمد بعيد ، امرأة ورجل .. رجل وامرأة .. وكر آمنٌ .. ظل ظليل .. حياة كريمة ، ماذا كنت تريد أن تكون في الكرمة أو الدراويش أو في أي مكان يا ابن رابحه ؟ .. لعلك أصبحت في نفسك سيداً، ولكنك في نفسي ، أصبحت لا تصلح لأي شيء ، بعد أن فقدتَ قدرتك علي كل شيء . أنت حكمت على نفسك بما أقررت ؛ في نزال الكرمة وبني حميد ، ولتتأكد من عشق الغجريات مرة أخري ، ويكون آخر ما تغمض عليه عينك الزائغة ؛ وبعدها ستأخذني يا سعدون يا ابن أم ، إلي حياتنا الأولي .. عز أبيك وشخاليل أمك في موالد الحضر ، من فات ماضيه ضل ، ومن ضل في وادٍ كهذا الوادي المشئوم ؛ فلا بكاء عليه . ستقتل فوازاً في النزال يا سعدون ، ونعود إلي الحياة مرة أخري ؛ نترك المالح الذي صرت أمقته ، وألعن الأيام التي قضيتها على ضحاضحه ، وعلى قمة جبله المهدَّم ، سوف أقذف من مرارة حلقي بصقة كبيرة .
نعم يا رباح ، إن الوقت لم يعد لنا ، بعد أن فرَّ شويح الراوي هارباً قبل أن أخرسه إلي الأبد .. إن النزال قد بدأ بهذه المماحكات بين الكرمة وبني حميد فوق الجبل ، وإني أشمُّ ريح خيانة

زوجك ، يدبر لنا مثلما ندبر له ، ولشد ما أخشاه ، أن يعود البشير من إكباش ، وعندها سينتهي الشجار قبل أن يحتدم ، وتتضح حقيقة ضاحية أمام ابنها ، وتفتضح الأمور كلها .

أشيع في قبيلة بني حميد ، خبر هروب ولي الدين بمعاونة شويح الراوي .. انتفضت هلاهيل سالم ، وهو يدعم جيشه بصفوف أخري لملاقاة الكرمة عند السفح .. نصب المشانق فوق الأشجار وفي الوادي وعلى الأشهاد .. وأمر بقتل حراس السجن الذين انشغلوا بمطالعة الجند ، وهم يتخذون الأماكن فوق الجبل وتحت المدقات ، ويصنعون الخنادق تحت الرمال ويعوون كالذئاب .

* * *

-48-

كان ولي الدين وشويح قد ابتعدا ، وأصبحا في مأمن عن يد سالم وأعوانه ؛ بعدها أدرك الشريف ضرورة ترك الراوي ، والإسراع إلي جزيرة إكباش حيث اللحاق بالبشير ورفاقه ، الذين لا يزالون يواجهون المالح في بطنه المكتنزة بالأسرار . أخذ جواده وشق الريح إلي هناك .. حيث وقف على صخرة عالية بالجزيرة .. رأي الفلوكة بعينه ، فشعر بنشوة ملاقاة البشير ، الذي انشغل بقياس وتحديد سرعة واتجاه تيار عمق المياه عن طريق رصد (الشمندورة) الطافية ، التي غرسها فوق سطح الماء ، وراح يراقبها من حين لآخر ، حتى اطمأن لتيار العمق .

أما (البصاص) فقد راح يحاول بمفرده جذب الحبال التي ربطتْ بالأقفاص الحديدية ، المُعدَّة للغواصين ، تخوفاً من لقاء زنابير وأفعوانات المالح في بطن هذه المنطقة المذمومة . لم يكن البشير بمعزل عما يحدث بين الكرمة وبني حميد ، تحت سفح جبل الوادي .. لكنه كذلك كان في منازلة شرسة مع دوامات المالح المميتة ، وعواصف البر التي تلف الجزيرة المهجورة . إن ضروباً من الأهوال في مواجهة البشير ورفاقه من الخفر والغواصين .. الكل على يقين بأن هناك سراً أعنف من زعانف الأحياء المائية الشرهة ، يكمن في الضفة الأخرى للمالح ، حيث تعلو سماء أخرى على أرؤس القراصنة المنتشرين في صحاري إكباش ؛ الذين يتلصصون ، ويقطعون البر والبحر على كل من يحاول الاقتراب من الجزيرة المكتظة . زعمي أنهم قتلوا آباء وأجداد الكرمة وبني حميد ، الذين وطئوا المالح قديماً .

إنهم ينبشون تحت الماء بزعانف من حديد ؛ لكي يتمكنوا من العثور على المنطقة الزاخرة باللؤلؤ والماس . كان اليوم حارقاً على غير العادة .. ارتدي الرفاق زعانفهم ، وانتفختْ الجلود اللصيقة بالأجساد .. أطلق البشير صفاراته استعداداً لمنازلة بطن المالح . اختطفتْ الدوامات الرهيبة الغواصين ، المحاطين بأسيجة من القضبان الحديدية الصلبة في هياج وشراسة نحو

الأعماق .. كان البشير قد أمر بوضع ذلك البصاص فوق المالح ، لمراقبة السطح الهائج ؛ وكذلك إدارة الحبال التي ربطت بها الأجساد التي غاصت في القاع .

كانت الحبال مثبتة في الغواصة الضخمة التي عاندتْ الأمواج والصعاب حتى وطئت الجزيرة .. ومن بين أنقاض الفلائك والقوارب الغارقة حطت أسيجة القضبان ، بما حملت من الغواصين ، ومن خلال مراصدهم أضيئتْ كشافاتُ الماء في المنطقة المليئة بالجماجم والعظام الهشة وطبقات من السيليكون والجرانيت والأعشاب المرجانية الموحشة . نظر البشير إلي رفاقه بصمت ، فيما ارتدتْ نظراتهم له بتعاسة وأسى ، بعد أن مسحوا قاع المنطقة ، وتسلَّلوا عبر الشعاب ونباتات القاع الكثيفة والصخور والطحالب ، وما فجَّروه من خلال أصابع الديناميت في القاع من سراديب وكهوف . كان مذاق المالح أكثر حنطة ومرارة .. حتى أشار البشير بالصعود بعد أن تناول قبضة من قاعه المظلم .. انطفأت الكشافات المائية ، وبدأ البصاص يشد الحبال بقوة وصبر يعاند بهما ارتفاع الموج والدوامات . "ومع اقتراب إعصار حلزوني من شاطئ الجزيرة الوعرة ، لاحظ البشير نعمان تألقاً ناصعاً، ولكنه غير مستقر . إنه يشبه شعاعاً كاشفاً ضعيفاً يومض ويخبو .. نشأ انطباع لدي الجميع أن الضوء صادر من جسم يتقلب حول محوره ، وراء ذلك الجسم المتألق بقعة كبيرة ذات وميض فسفوري ، كان الأرجح أنها إحدى حالات تألق بطن المالح المتواترة . تأكد البشير أنه شيطان البحر ، يحيا في هذه المنطقة بالذات - كما هو مسجل في المخطوطة التي ورثها عن أبيه - وطوله خمسة وعشرون متراً، وله جذع مسطح عريض مغطي بدروع من صفائح صلبة ، وذيله شبيه بذيل الربيان ، وفمه أسفل الجسم ، ولعينيه غطاء وتبدأ رأسه في اللمعان مع اقترابه من السطح " . شاهد الخفر ذلك الوحش فأمر ابن نعمان البشير بتعليق بلطة حديدية ، وحلقة فضية على مقدمة القارب الجساس الضخم ، بعد أن استوت الأقفاص الحديدية على السطح .

كان أفعوانٌ ضخمٌ، يدنو من الأسيجة الحديدية .. يلطمها بجسده ، فتتهاوى يمنة ويسرة في المالح محدثة ما يشبه زلزالاً يهز البحر . طالع ولي الدين ذلك المشهد من الخارج بإشفاق على البشير ورفاقه ، بعد أن أدركوا السر . إن الأشياء تغيم في وجوه الرفاق .. القاع يصير أرضاً، والأرض تصبح قاعاً، والنهار لا يتضح ، والليل يقترب من شاطئ الكون ، ويفرد أجنحته السوداء حول الوديان السحيقة . ومن بين القضبان امتدت الحراب ذوات الزج المسنون ، في لحم الأفعوان الشيطاني الكئيب حتى أدمته وأبعدته ؛ وهو ينظر بكراهية تجاه الأسيجة . قيل : " إن له عيوناً لا حصر لها .. كل جسده عيون لا تشبه العيون ؛ ولكنها قرائح مكرورة ومنثورة بطول جلده الأجرب . إن نظرة الكره التي أفزعت ساكني الأسيجة ، تشي بالحقيقة يا ابن نعمان البشير .. عليكم بالعدول ، والطفو في أقل من ثوانٍ، وإلا .. !!

نفرتْ عروق رقبة (البصاص) فوق السطح . كان ينظرُ لِوَلِيِّ الدين ، نظرة استغاثة .. تصبَّبَ جبينه عرقاً أكثر ملوحة وخوفاً . طفتْ الأسيجةُ فوق السَطح الأملس .. كان الموجُ قد هدأ

هدوءاً مريباً، كأن البحر قد مات فجأة وابترد .. أيقن البشير أنها الحقيقة المحتومة .. قبضة من قاع المالح كافية يا رفاق .. وكفي ما يحدث في إكباش .. كلها أرض ، وكلها سماء .
* * *

-49-
كانت نرجس قد أسرعتْ إلي بناية (دار الحكمة) خوفاً على بدور ، قالت :
" الآن يحينُ وقت خروجك يا بدور ، من هذه البناية ، إن القوم يتعاركون عند السفح . ألا تسمعين الصهيل والصليل والصراخ والعويل .. ألا تشعرين بالزلزلة التي تهزُّ جدران البناية إثر اندكاك الجبل . إن الصخور قد طمرت بئر الماء العذب في الوادي ، وتطاولت حتى حدود الديار والأوكار يا عذراء القمر . إن بكر الزين ، سيضيع في النزال بين خائنين يكيدان له .. سوف يسقط ابن عمك ؛ بخنجر فواز أو سعدون الموالدي .. إن الغجرية تستعد للرحيل من الوادي ، بعد أن جاستْ خلال ديارنا خراباً ودسَّتْ الفتنة ، وعلَّمَت الغلمان والشيوخ اللهو والمجون . إن أمك ما تزال تصرخ من أجلك ، وأباك استرهبَ الخلائق ، وجلس مذهولاً عند القوارب القديمة . ألا تسمعين يا كرمية .. لقد نازلَ بكر الزين الكرمي ؛ سالم الحميدي .. وخالطتْ الدماء رمال الوادي كما تنبأت يا عذراء القمر .. لقد التهمَتْ المنازلةُ خيرة الغلمان والأشراف معاً، ولا تزال قائمة من دون هدأة .. ألا من شفعتك الآن يا بدور " .

انتفضتْ بدور صارخة حتى لثمتْ نرجسُ فمَهَا . انفلتتْ من بين يديها ، متجهةً نحو الخارج ، كأن داعياً دعاها لتوها . هل تنفع اليوم شفعتي لأهلي وعشيرتي يا ولي الدين ؟! .. ناداها ؛ وكأن الأرض قد تفتَّقَتْ عنه فجأة ، بعد أن عاد برفقة الخفر :
" يا بدور ، لم تعد تجدي الشفعة ، بعد أن ائتمر القوم .. إن الساحة قد امتلأت بدماء الأبرياء .. انظري .. إنها دماء مالحة .. انظري ، إن الجبل يهتز بعنف .. انظري ، هذا هو البشير يأتي برفقة رجاله من كل الجهات البعيدة . انظري .. إنها ضاحية ، قد أتت من كل اتجاه ، وهذا هو شويح الراوي خلف الجبل خائفاً يترقب ؛ ينتظر سلطان ابن سالم المُعلم الناجي ، ليُفضي بسر الرسالة .. الرسالة التي تكبد عبء حملها ونقلها إلي بكر الزين .. إنها المعركة يا بدور ، يا قمرية المنبت ، ويا عذراء البوادي .

جرت بدور تجاه السفح ، ومن ورائها زهيرة وفياض ثم نرجس ورفاعى وشويح الراوي تقوده عصاه المعقوفة ، وخلف الجميع صفوانة ، وبيدها آلة حديدية ملتهبة الرأس للكي ، ونقش الوشم .. كلٌّ يقصدُ بدورَ لغايةٍ في نفسه ؛ تختلفُ اختلافاً عما في نفس الآخر نحوها . كانت الصلصلة قد هدأت تحت السفحِ .. ربما صفيت النار حتى اختفتْ تحت رمادها جمراً .. من يستطيع اللحاق بك يا بدور .. هل تظنين في سالم ، ما ظننت في ولي الدين خيراً من قبل ؛ لتنفع شفعتك مرة أخرى .. أبداً يا كرميَّة .. الآن لن تجدي الشَفعة .

كانت أنفاس ولي الدين تتلاحق ، وهو يجتاز العجائز المتوكئات ؛ قاصداً إيقاف البنت التي كانت عيناها تندفعان من محجريهما نحو مرمي ابن الزين الجساس ، حتى ارتمتْ عليه وسط الضجيج ، آخذةً عنه زُجَّ خِنْجَرِ الغدر في قبضة فواز ، فيما تناول من خلفه طعنةٌ من ولي الدين ؛ الذي تحسَّسَ دماء بدور ، وهي تسيل تحت ملابسها البيضاء ، وقد راح يضمها إلي صدره ضمة ، كأنما يدخلها بين ضلوعه صارخاً بعزمه :
" الآن بدور بين يديَ عاشقيها ، ولي الدين وبكر الزين .. بكر الزين وولي الدين ، من منا الآن يستطيع ردها إلي من .. ؟!
* * *

-50-
انقضتْ أيامٌ طوال ، ولا تزال رائحة الدم تفوح ، مع هبَّةِ كل نسمة هواء ليست عليلة ، على الوادي كله . فيما أضاءتْ جنبات الكرمة بابن نعمان البشير . كان فوق جواده ؛ ينظر تجاه البناية التي تهدَّمتْ تحت الصخور المتهاوية .. ومن ورائه رفاقه الخفر ، وقد علا الشيب رؤوسهم . صهل جواد البشير ، فارتد صداه في فضاء الوادي ؛ ولا يزال الجبل يلقي بأوزاره فيهدم ويبيد ويرجف القلوب ويزيل الأوكار والديار والمكامن .

راح فيَّاض يلف الوادي شرقه وغربه .. يصيح بعزمه ومن ورائه زهيرة .. تهيل الرمال على رأسها وتنعي بدور نادبة :
" يا ابن نعمان .. يا ابن الزين .. يا أبناء المالح .. غابت شمس الديار ؛ وبدور أبداً ما تركتْ الأوكار خالية ، أو مظلمة ، أو كئيبة .. إن رائحتها في كل ركن وزاوية من زوايا (دار الحكمة) ؛ هي زينة الكرمة وشفيعتها .

توكأتُ، حتى واجهتُ المالح بوجهٍ قديمٍ .. كانت تحبه بدور .. قلت ليس بوسعي أن أصنع لكِ تمثالاً يا ابنة عم .. لأني لن أسمح أن يكون لأحلامنا قدمان من صلصال .. خلعْتُ القدم الخشبية التي جلبها لي الموالدي .. أطحتُ بها في عرض المالح .. نظرتُ يمنة ويسرة .. كانت أمي وشويح الراوي عكازيَّ .. توكأتُ عائداً باتجاه حضن البشير ، الذي أفرد لي ذراعيه بعرض المالح وطوله .. راحتْ العجائزُ تنتحبُ، خلف صندوق مستطيل من الخشب ؛ يحمله الغلمان ، في طريقهم لمقابر الوادي ، بتسكعٍ وارتباك .

* * *
(تمت)